

محمد علي أبو حمده
ماجستير في النقد الأدبي

من أساليب البيان
في القرآن الكريم

مكتبة الرسالة الحديثة
عمان


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من أساليب البيان

في القرآن الكريم

تأليف

محمد علي أبو حمدة

ماجستير في النقد الأدبي / الجامعة الأمريكية ببيروت

(عضو هيئة تدريس بكلية الآداب / الجامعة الاردنية)

مكتبة الرسالة الحديثة

عمان

الطبعة الثانية

١٤٠٣ ـ ١٩٨٣

الباب الاول

البيان واللغة

ما نكون في شأن ، ولا نخوض في أمر ، ولا نحامي عن فكرة ، او ننتصر لها ، ونحمل الناس على ان يروا رأينا ، ويسلموا بوجهة نظرنا ، ووجاهة اسبابنا ، الا كان البيان هو اداتنا والسبيل ٠

والبيان : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد ، بطرق مختلفة ، في وضوح الدلالة عليه[١] ، وها نحن نعطي موضوع التعبير الواحد لجميع الطلبة ، وليكن وصف الربيع مثلا ٠ ومع تجانس البيئة وتشابه المنظورات في فصل الربيع ، الا ان أحدا من هؤلاء لا يكتب موضوعا كالآخر ، بل تتفاوت الموضوعات من حيث الحسن او التقصير ٠ ان موضوع التفاوت هو الميدان الذي يتحرك فيه البيان ٠ وهو التفاوت عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « انكم تختصمون الي ، ولعل بعضكم يكون الحن في حجته من بعض فأحكم له على نحو ما اسمع منه ، فمن حكمت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار » ٠ وهو التفاوت كان يعنيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه حين يقول : « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد »[٢]٠

والبيان : « هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك امر وراء النحو والاعراب ٠ الا ترى ان النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ، ويعلم مواقع اعرابه ، ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة »[٣] ٠

---

(١) القزويني ، تلخيص المفتاح ، ص ٢١٨ ٠ يحسن أن نستذكر في هذا الصدد قصة تعبير رؤيا ابي جعفر المنصور وقد رأى أسنانه قد سقطت فأخبره المعبر الاول ان أمير المؤمنين سيكون أكثر أهل بيته هما وحزنا فاستاء منه وقول المعبر الآخر : أبشر يا أمير المؤمنين فانك ستكون اطول اهل بيتك عمرا ، فسري عنه ٠ وواضح تفاوت التعبير عن المعنى الواحد وتفاوت ذلك من حيث الحسن وعدمه ٠

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٩ ٠

(٣) ضياء الدين بن الاثير : المثل السائر ج ١ ص ٤٠ ٠

وعلم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة الفقه للاحكام وأدلــة الاحكام[٤] ، وهو الذي يعطي العلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجني صنوف ثمارها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها · وبه أبان الله تعالى الانسان من سائر الحيوان[٥] ، ونبه فيه على عظيم الامتنان[٦] ، فقال عز من قائل : (الرحمن · علم القرآن · خلق الانسان · علمه البيان) الرحمن ١ـ٤ · وما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشيء من العلوم غير البيان: «أنا أفصح من نطق الضاد»[٧]. وقال صلى الله عليه وسلم « ··· أوتيت جوامع الكلم »[٨] فلو لم تكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة ـ كما يقول ضياء الدين بن الاثير ـ لما اتصل الاعجاز بها دون غيرها ، فان كتاب الله تعالى نزل عليها ، ولم ينزل بمعجز من مسائل الحساب ، ولا من مسائل الطب ولا غير ذلك من العلوم[٩] ·

وبين من قول ابن الأثير ان الاعجاز سيبقى في البيان دون غيره وان ثبت ان هناك اشارات علمية او عددية معجزة · وهو ما ذهب اليه ابن

---

(٤) المصدر السابق ص ٣٥ ·

(٥) يقول شهاب الدين الخفاجي : قد ثبت ان الفرق الواضح بين الحيوان الناطق والصامت هو النطق وبه وقع التمييز في الحد المنسوب الى الحكيم (أرسطو) · سر الفصاحة ص ٦٣ · وقال اصحاب المنطق : حد الانسان الحي الناطق · انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٧ وابن رشيق العمدة ج ١ ص ٢٤٢ ·

(٦) الامام عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ص ٢ · وكان اليونان يسمون الخطيب بليغا لان مستمعيه كانوا متمرسين بكل فنون الاقناع · انظر : The Lively Rhetoric p. 5. وواضح اشارة القرآن الكريم الى ان الانسان هو المقصود بالاعجاز البياني ·

(٧) وفي حديث مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب ، بيد اني من قريش » انظر الخفاجي : سر الفصاحة . ص ٦٠ ·

(٨) قال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي · كان كل نبي يبعث في قومه وبعثت لكل أحمر واسود ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت جوامع الكلم » · المثل السائر ج ٤ ص ٤ـ٥ · وقال صلى الله عليه وسلم تعليقا على قول لعمرو بن الأهتم في الزبرقان : « ان من البيان لسحرا » العمدة ج ١ ص ٢٥٤ ·

(٩) المثل السائر ج ٤ ص ٥ ·

ناقيا البغدادي حيث قال بعد حديثه عن حال العرب : « ... مع وقوع التحدي لهم بمالا يخرج عن شأنهم[١٠] .

ان الاعجاز هو البيان ولا ينبغي لأحد ان يقيم الحجة على الناس من غير هذا الطريق . ومن هنا نتبين وعورة الطريق الذي يسلكه بعض الذين يشددون على أنفسهم في تفسير القرآن الكريم عصريا كما فعل د. مصطفى محمود او عدديا كمثل ما فعل عبد الرزاق نوفل في « الاعجاز العددي للقرآن الكريم » ناهيك عن أن هذه الحجة لن تطال المعاصرين للرسالة الاسلامية على عهد نزول الوحي عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعد عهدهم عن التفسيرات العلمية او العددية ولان مجال التحدي في غير الذي قد مهروه وحذقوه وعرفوا به .

والبيان : هو ترتيب المعاني في النفس ، والانتظام فيها على قضية العقل[١١] ، ومن ثم فهو التغلغل الى دقائق اللغة واسرارها ، علاوة على التحفي بكل ما يتفتق عنه العقل البشري من علوم ، ومعارف ، ومناهج بحث ، وطرائق استدلال . لذا فهو عملية نامية Dynamic تعيش اللغة بكل ابعادها ، وما يجد فيها من اضافة وتعميق ومفاهيم ، مع متابعة القضايا العقلية ، واستيعاب العصر ، ومعطياته الثقافية[١٢] . وبالجملة ، فان صاحب هذه الصناعة – كما يقول ضياء الدين بن الاثير – يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون ، حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ، والى ما يقوله المنادي في السوق على السلعة ، فما ظنك بما فوق هذا ؟ والسبب في ذلك انه مؤهل لأن يهيم في كل واد ، فيحتاج ان يتعلق بكل فن[١٣] . ويقول : والصحيح

---

(١٠) الجمان في تشبيهات القرآن ص ٢٤٠ .

(١١) أسرار البلاغة ص ٤ .

(١٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم : الحكمة ضالة المؤمن ، فهو احق بها اذا وجدها (المثل السائر ج ١ ص ١٠٠) . ويقول ديكارت في هذا الصدد : أنه لا جرم ان تكون الحكمة هي القوت الصحيح للقلوب ، فان الذهن هو اهم جزء فينا ، وطلب الحكمة لا بد بالضرورة من أن يكون همنا الاكبر (أنظر : مشكلة الفلسفة ص ٧) .

(١٣) المثل السائر ج ١ ص ٧٣ .

ان باب الابتداع للمعاني مفتوح الى يوم القيامة ، ومن الذي يحجر على الخواطر[١٤] . ويقول الجاحظ : « البيان من نتاج العلم »[١٥] .

أما كيف تترتب المعاني في النفس ، وتنتظم على قضية العقل ، فذلك في الالغاز المستسرة ، التي تستعصي على الكشف ، وتدق عن العلم . يقول الدكتور خالص جلبي كنجو : « كيف يتم التفكير والادراك والتخيل وتركيب الكلمات والجمل والافكار وربط كل هذا بعضه الى بعض بحيث يخرج الكلام منسجما متوازنا يهدف الى معنى ، ان هذا يقف الطب حتى الآن عن الاجابة عليه . ثم كيف يستخدم الانسان الاسماء حتى يتفاهم مع غيره على الشيء الذي يريده ايضا معجزة من المعجزات . ثم كيف ينتقل هذا الامر من عالم الماديات المحسوسة الى عالم الروح والفكر حيث يتم التعبير بالاشياء المجردة ؟ الحق يقال اننا درسنا عمومات الطب من اوله الى آخره ، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن ان نفقه هذه الاسرار »[١٦] .

ولأمر ما شاء الله تعالى أن تكون معجزة القرآن الكريم بيانية باقية بقاء النيرين ، حتى يرث الله الارض ومن عليها . قال تعالى في محكم التنزيل : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » هود : ١٣ . وقوله تعالى : مفتريات ، اقرار لهم بالبراعة اللغوية دون حصول العلم بالحقائق والمقاصد ، ومن ثم حبطت محاولاتهم لان البيان هو وحدة اللغة والعلم ، وحدة لا انفصام فيها ، تماما كما يلتقي الشعور والقلب والعقل في الشخصية الانسانية ، ومن ثم تكون الامانة والتكليف من خلال وحدة الرؤية في ذلك كله . قال تعالى : « ان السمع والبصر والفؤاد ، كل اولئك كان عنه مسؤولا » الاسراء : ٣٦ .

وقال تعالى : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » البقرة : ٢٣ .

---

(١٤) المثل السائر ج ٣ ص ٢١٩ .

(١٥) البيان والتبيين ط السندوبي ج ١ ص ٧٨ .

(١٦) الطب في محراب الايمان ج ١ ص ١٤٢ .

وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا انقرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » الاسراء : ٨٨ ·

وها قد مر اربعة عشر قرنا ولم يذر لأي كتاب قرن في منافسة القرآن الكريم او أن يخمد له ذكرا حتى كارل ماركس الذي يبشر الملحدون بفكره مات وهو يعتبر القرآن الكريم منافسه الاكبر* ·

واذا كان هذا الكتاب المعجز الناطق بالحق قد اذعنت له اعناق العرب وهم اهل لسن وفصاحة ، حتى ان معلقاتهم لا تزال في الفحولة التي تعجز المتأخرين ، وان قد بلغ الامر من رهافة حسهم وتحفيهم بالنصوص والروائع ان كانوا يولمون لنبوغ شاعر(١٧) ، وحد ترك امور معاشهم للموازنة بين الشعراء في أسواقهم العامة في عكاظ وذي المجاز والمشقر(١٨) ، وفي مواسمهم ومنافراتهم ، فانه اليوم ــ ومع غياب الدولة الاسلامية المركزية ــ وفي وقت تجهز فيه القوى العالمية على آخر مقدرات الامة الاسلامية وهو امر دينها(١٩) ، ويحارب على مستوى الحكومات الاستعمارية والمؤسسات والافراد ، ويمول على ذلك جنود ظاهرون ومستترون(٢٠) ، فانه يؤلف كل

★ Business Week, April 4, 1977, P. 15.

(١٧) ابن رشق القيرواني ، العمدة جـ ١ ص ٦٥ ومصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد ص ١٠٩ ·

(١٨) انظر اسواق العرب في الجاهلية في تاريخ اليعقوبي جـ ١ ص ٢٧٠ ·

(١٩) نشرت صحيفة الرأي الاردنية في عدد السبت ٢٩/٥/٧٦م تحقيقا حول الجلسة الصاخبة التي عقدها مجلس الشعب المصري للتصويت : خمر او لا خمر · وهذا يدل على ضياع تطبيق الحدود الاسلامية في بلد كان ابن أمير المؤمنين وابن والي مصر يجلدان على شرب الخمر ·

(٢٠) قال جلادستون رئيس الوزارة البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : « ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبة السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي في أمان » · نقلا عن كتاب (جذور البلاء) للمرحوم عبد الله التل ص ٢٠٣ ·
ــ اكتشفت حكومة المغرب العربي آلاف النسخ المزورة من المصحف الشريف وفيه عدد من الآيات المحرفة لتلائم أهداف اليهود · واكتشفت مؤامرة يهودية أخرى في شيكاغو حين نشرت دار ديفز اليهودية ما أسمته « بالقرآن الصغير » أوجزت فيه القرآن على هواها · وتنبهت القاهرة والازهر الشريف لهذه المؤامرة الخسيسة ، وسارعت الجمعيات الاسلامية في المناطق التي وزع فيها القرآن المزيف الى جمعه وحرقه (انظر : جذور البلاء ص ٢١١) ·

يوم قلوبا ما عمرتها الحضارة المادية • ان الطوابير الجرارة التي تعلن اسلامها على ملأ من اقوامها في العواصم الغربية والشرقية على السواء ، لهي الدليل العملي على قوة البيان القرآني ، ومقدرته على مخاطبة العقل وتحريك الوجدان والمشاعر •

اما الامثلة على بهر فصحاء العرب ببيان القرآن ، ومعجزته العقلية ، فهي كثيرة ، ومبثوثة في كتب السير والبلاغة • وقد آمن لسماع القرآن الكريم نفر كثير ، منهم : ابو ذر الغفاري ، وأخوه أنيس ، وجبير بن مطعم ، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم • ويكفي ان نشير الى قصة الوليد ابن المغيرة مع القرآن الكريم وذلك بصفته أحد الفصحاء الذين كان لهم وزن في معرفة اسرار الكلم ـ كما يرويها ابن هشام ـ : اجتمع النفر الى الوليد بن المغيرة في الموسم اذ قال لهم : « يا معشر قريش ، انه قد حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضكم ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع • قالوا : نقول كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : فما هو بمجنون • لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخفقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته ، قالوا : فنقول : شاعر • قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله : رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا ابا عبد شمس ؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة ، وان اصله لعذق ، وان فرعه لجناة(٢١) • وان لبيدا بن ربيعة العامري ، أحد شعراء المعلقات ، كان عمر بن الخطاب ارسل اليه يطلب منه ما قاله

---

(٢١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠ ، دلائل الاعجاز ص ٢٥٢ وفي قول آخر : ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق وما هو بقول البشر ، الزمزمة : الكلام الخفي لا يسمع • العذق : أصل النخلة •

في الاسلام من الشعر ، فانطلق الى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى بها فقال : أبدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر[٢٢] ٠

وفي العصور الوسيطة كان للبيان القرآني قدرة عجيبة على غزو القلوب وعمارتها ونشر الاسلام في وقت كانت دول الاسلام مجزأة ضعيفة ٠ ويكفي ان نشير في هذا الصدد الى اعتناق المغول للاسلام في وقت كانوا فيه في أوج انتصاراتهم وأمجادهم العسكرية ٠ وهكذا تحول من كان يخطط للقضاء على البيان الاسلامي وتقويضه ليصبح الحامي عنه بله الناشر له ٠ وهذا المستشرق الانجليزي ثوماس ارنولد في كتابه «الدعوة الاسلامية »[٢٣] يأتي على ذكر بعض ذلك ، يقول : « كان اول مغولي اعتنق الاسلام بركة خان الذي يروي ابو الغازي : « انه دخل الاسلام بعد اعتلائه العرش ، اذ تقابل مع قافلة من بخارى ، وانفرد باثنين من رجالها ، وسألهما عن الدين الاسلامي فشرحا له ما ارضى نفسه فأسلم ثم أفضى بذلك لأخيه الأصغر الذي أسلم هو الآخر »[٢٤] ٠ وفي سنة ١٢٩٥ م اعتنق «قازان» سابع الخانات الاسلام وجعله دين الدولة في فارس ، وكان هذا قد نشأ بوذيا وبني عدة معابد للبوذية في خراسان ، وبعد اسلامه غدا شديد الحماسة للدين وكان يفد اليه العلماء والفقهاء من كل مكان يجالسهم ويستمع الى حديثهم[٢٥] ٠ أما طغلق تيمور خان فيقال ان اسلامه كان على يد شيخ فاضل من بخارى اسمه جمال الدين ، وتفصيل ذلك ان هذا الشيخ اجتاز مع بعض المسافرين أرضا اختصها الامير لنفسه يقضي فيها فراغه في الصيد والقنص ، فلما علم بمرورهم ، وكان ذلك محظورا غضب وامر بشد وثاقهم واحضارهم اليه وسألهم عما دفعهم الى المرور من هنا فقال الشيخ : انهم قوم غرباء ولا يعلمون عن حرمة تلك الارض ، فسألهم عن جنسيتهم فقالوا : انهم فرس ٠ فصاح بهم قائلا : ان الكلاب افضل من الفرس ٠ فقال الشيخ : « صحيح لو لم

---

(٢٢) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٣٥ ٠ وانظر : ابن حجة الحموي خزانة الادب ج ٢ ص ٢١٥ ٠

(٢٣) ترجم منه مقتبسات بعنوان « دين الناس كافة » محمد خالد حسين ٠

(٢٤) دين الناس كافة ص ١٣ ٠

(٢٥) نفس المصدر ص ١٦ ٠

نكن مؤمنين » . فدهش لما سمع ، وتساءل عن معنى مؤمنين . فقالوا : اننا نؤمن بالاسلام . واخذ يشرح حقائق الدين بحماسة حتى استحال قلب الامير الى أرق من الشمع ، ووصف الشيخ الكفر وصفا جعله ينفر منه ، فأسلم . وبعد اعتلائـه العرش اعلن اسلامه وتبعه قوم من المغول[٢٦] . ان الاسلام ـ كما يقول توماس ارنولد ـ قد كسب اعظم انتصاراته في اماكن وازمان كان سلطانه السياسي اضعف ما يكون[٢٧] .

ولا نظن ان السلطان السياسي هو اقوى وسط هذه المنافسات العلمية العملاقة منه في العهود الوسيطة ، والمتدبر لكتب كثيرة[٢٨] وضعت في المسلمين الغربيين ومواقف التحولات في حياتهم ـ ومعظمهم ينتمي الى بيئات علمية وثقافية ـ يستطيع ان يظفر بالكثير من أسرار البيان القرآني وقدرته على غزو القلوب وعمارة العقول .

عالمية البيان :

اذا كان البيان هو العلم الذي يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، « والذي لولا تحفيه بالعلوم ، وعنايته بها، وتصويره اياها لبقيت كامنة مستورة ، ولما استنبت لهـا يـد الدهر صورة ، ولا ستمر السرار بأهلتها ، واستولى الخفاء على جملتها »[٢٩] ، استتبع ان يكون ذلك عالميا بأي لغة كانت ، وفي أي وسط يكون . والواقع ان البيان لغة عالمية ، اذ ان كل عارف بأسرار الكلام ـ كما يقول ضياء الدين بن الاثير ـ من أي لغة كانت من اللغات يعلم ان اخراج المعاني في الفاظ حسنة رائقة ، يلذها السمع ، ولا ينبو عنها الطبع ، خير مـن اخراجها في الفاظ قبيحة مستكرهة ، ينبو عنها السمع[٣٠] . ويقول ابو

---

(٢٦) دين الناس كافة ص ١٧ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٣٠ .

(٢٨) من ذلك كتاب : « لماذا أسلمنا » وهو مجموعة مقالات لنخبة من رجال الفكر في مختلف الاقطار عن سبب اعتناقهم الاسلام / مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .

(٢٩) دلائل الاعجاز ص ٤ .

(٣٠) المثل السائر ج ١ ص ١٢٠ .

عثمان الجاحظ : « البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ، لان مدار الامر والغاية التي يجري اليها القائل والسامع ، انما هو الفهم والافهام ، فبأي شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[٣١] . ولهذا صح لأبي عثمان الجاحظ ان يأتي على منطق أرسطو بالقول : « الا ترى ان كتابا بالمنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الامصار وبلغاء العرب لما فهموا اكثره »[٣٢] . وصح لمؤلف كأبي محمد عبد الله بن قتيبة ان يتحدى المناطقة ببيان الاسلام اذ يقول : « ولو ان مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، او يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لايقن ان للعرب الحكمة وفصل الخطاب »[٣٣] .

ان من مهام علم البيان : وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وتصحيح الاقسام ، وحسن الترتيب والنظام ، والابداع في التشبيه والتمثيل ، والاجمال ثم التفصيل ، ووضع الفصل والوصل موضعهما ، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما[٣٤] ، وهـــذه موجودة في كل لغة[٣٥] ، وموافية على اي لسان .

---

(٣١) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦ .

(٣٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٩٠ .

(٣٣) ابن قتيبة ، ادب الكاتب ، ص ٥ المقدمة .

(٣٤) دلائل الاعجاز ص ٤٠ ويقول الجاحظ : « وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الاشارة ، وحسن الاختيار ، ودقة المدخل ، يكون اظهار المعنى » البيان والتبيين ج ١ ص ٧٣ .

(٣٥) جاء في تعريف البلاغة انها اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، منها ما يكون في السكون ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون خطبا ، وربما كانت رسائل : « كتاب الصناعتين » ج ١ ص ٢٠ . وواضح ان هذه أمور انسانية لا تختص بلغة دون لغة .

النظام اللغوي :

دلت الدراسات على ان جميع لغات البشر لها نظام متشابه ، فكل اللغات تتكون من جمل تتكون بدورها من كلمات · وكلها يمكن تركيب جمل منها أكبر من خلال تضمين بعضها ببعض ، وكلها لها علاقات نحوية · والكلمات في كل اللغات تتكون من أصوات مميزة وهذه الاصوات لها موحيات ودلالات معينة · ان التشابه بين اللغات يميز لغة الانسان عن لغات الحيوان ، وكلها تتصل بالتركيب الحياتي للانسان(٣٦) · أن هذه العالمية في اللغة مردها الى تركيب الدماغ · فكما ترث الطيور المقدرة على الطيران والاسماك المقدرة على السباحة ، فان الناس يرثون المقدرة على استخدام اللغة بطريقة تميز نوعهم(٣٧) · ورغم المحاولات المستمرة – يقول د· كارل ديلر – لم يستطع أحد تعليم لغة البشر الى الحيوانات · انه ليس على حجم دماغ الانسان يتوقف تعلم اللغة ، ولكن على تنظيم دماغه · ان تعلم اللغة يعتمد عمليات حياتية ، وان تطور اللغة عند كل طفل هي ذاتها رغم فوارق اللغة والثقافة والوسط · صحيح ان بعض الاطفال يثقفون لغات قبل غيرهم ، ولكن طريقة النمو هي ذاتها لدى جميع الاطفال وحتى للمعوقين منهم · على أن أهم ظاهرة تبقى تستلفت النظر بشأن اللغة ، هي –كمايقول ديلر – عالميتها(٣٨) · ان اللغة الانسانية – اي لغة – هي نظام متكامل ومعقد كما هو العقل البشري · لذا ، فان الوقوف على اسرار اللغة ، ومباشرة نصوصها ، وتعلم طرائقها في البيان والتبيين ، لهو من التعليم قلبه(٣٩) · واذ يكون البيان تحفيا بالعلوم جميعا وبسائر المعطيات الحضارية والثقافية وكل ما تفتق عنه الذهن البشري من مناهج في التفكير واساليب في الاستدلال وطرائق في المعرفة ، فان وقوفنا على أسرار لغتنا ، ومباشرة نصوصها وتعلم طرائقها

(٣٦) Generative Grammar, p. 27.

(٣٧) Ibid., p. 7.

(٣٨) Ibid., p. 77.

(٣٩) Effective Writing, p. 1.

في التفكير لهو تأصيل لعالمية البيان ، لان اللغة ظاهرة ذهنية[٤٠] • ومن ثم كان التنويه باللغة الام واثرها على الاصالة الفكرية ، بل وطريقة التفكير • ان الذي يسبر لغته ويتغلغل فيها على الدقائق والاسرار لهو في أفق علوي يستشرف معه العوالم الاخرى على نحو افضل منه لو بقي على العتبات الخارجية لمسطح من اللغات المتعددة • ولا يعني هذا اننا نقلل من أهمية تعلم اللغات الاجنبية ، ولكن يعني ان يكون تعلم اللغات الاجنبية بعد ثقاف اللغة الام ، وليس على حسابها •

ان في كل لغة كما يقول الامام عبد القاهر الجرجاني ـ دقائق واسرارا طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا اليها ، ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وانها السبب في ان عرضت المزية في الكلام ، ووجب ان يفضل بعضه بعضا ، وان يبعد الشأو في ذلك ، وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ، ويعز المطلب[٤١] • روي عن أبن الانباري انه قال : ركب الكندي (يعقوب بن اسحق) المتفلسف الى ابي العباس (ثعلب) وقال له : اني لأجد في كلام العرب حشوا • فقال له أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم • ثم يقولون : ان عبد الله قائم • ثم يقولون : ان عبد الله لقائـــم • فالالفاظ مكررة والمعنى واحد • فقال ابو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الالفاظ • فقولهم : عبد الله قائم : اخبار عن قيامه • وقولهم : ان عبد الله قائم : جواب عن سؤال ، وقولهم : ان عبد الله لقائم ـ جواب انكار منكر قيامه ، فقد تكررت الالفاظ لتكرار المعاني • فما أحار المتفلسف جوابا[٤٢] •واذا كان مثل هذا يغمض على فيلسوف عربي ، فان الحاجة تبقى تلح على كل متكلم بلغته ان يسبر أغوارها ، وان يقف على مقاصدها في القول ، وطرائقها في التعبير • ان من اهم تعقيدات اللغة ـ اي لغة ـ انه لا يوجد نمط واحد من الكتابة يلائم سائر الموضوعات في جميع المستويات ، بل ان

---

(٤٠) Generative Grammar, p. 35.

(٤١) دلائل الاعجاز ص ٢٥ •

(٤٢) نفس المصدر ص ٢٠٦ •

هناك تفاوتا في استعمالاتها(٤٣) • وان ذلك التفاوت ليتضح في درجات التحفظ في مراعاة المقـام Level of formality ، وفي المفردات Vocabulary وفي اللهجة Tone وفي عرض التفصيلات وفي انماط الجمل ، وربما في طرائق الترتيب واساليب التطوير ، ومع ذلك فان كلا منها بمفرده هو على درجة من الجودة عالية(٤٤) • وخير ما يمثل ذلك كله القرآن الكريم • فالقرآن أفق متسق من حيث الجودة الفنية ، ومع ذلك يجد المرء السور والآيات المكية غيرها السور والآيات المدنية • ففي حين تميل الآيات المكية الى القصر والوقع الموسيقي الحاد لتلائم جو الزجر والردع والتقريـــع ورسم المتقابلات بين مواقف أهل الجنة واهل النار نجد في المدني من الآيات اطالة في التفصيلات ، وهدوا في النغمات • ففي المكي نجد قوله تعالى من سورة المدثر : « يا أيها المدثر • قم فأنذر • وربك فكبر • وثيابك فطهر • والرجز فاهجر • ولا تمنن تستكثر • ولربك فاصبر • فاذا نقر في الناقور • فذلك يومئذ يوم عسير • على الكافرين غير يسير • ذرني ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا • وبنين شهودا • ومهدت لـــه تمهيدا • ثم يطمع ان أزيد • كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا • سأرهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر • ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • ثم أدبر واستكبر • فقال ان هذا الا سحر يؤثر • ان هذا الا قول البشر • سأصليه سقر • وما أدراك ما سقر • لا تبقي ولا تذر » المدثر : ١ ــ ٢٨ •

وتطول المواقف في السور المدنية ، « يؤثر طول عرضها في الوجدان، ويدعو المشاهدين الى ان يشاركوا المؤمنين في عبادتهم وصفاتهم المعروضة على الانظار »(٤٥) من ذلك قوله تعالى : (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس

(٤٣) Effective Writing, p. 1.

(٤٤) Ibid., p. 3. وفي هذا الصدد يستذكر المرء اندفاعة ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا في جعل اللغة الانجليزية لغة العالم من خلال قصرها على عدد من الالفاظ يسهل حفظها وتداولها وصعوبة هذا المرام •

(٤٥) سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص ١١٠ •

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) سورة البقرة : ١٦٤ ٠

وفي حين تبدأ الآيات المكية بقوله تعالى : يا أيها الناس ، نجد الآيات المدنية تبدأ بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ٠ ومع التفاوت في ذلك نجد الآيات جميعا على ذات الدرجة من التجويد الفني والافق العالي ٠ وكمثل على الدقائق والاسرار في اللغة يكفي ان نشير الى ما اورده مؤلف « شرح العقيدة الطحاوية » في معرض رده على من قال ان جواب موسى عليه السلام على فرعون : وما رب العالمين ؟ بقوله (رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين)[٤٦] هو من قبيل المغالطة ، اذ ذهب بعض المناطقة الى الزعم ان فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية وان المسؤول عنه ، لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجواب ، وهذا غلط كما يقول الشارح ٠ وانما هذا استفهام انكار وجحد ، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدا لله نافيا له ، لم يكن مثبتا له طالبا للعلم بماهيته ٠ فلهذا بين لهم موسى انه معروف ، وان آياته دلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو[٤٧] ٠

والمتدبر لنسق الآيات يعجب ويطرب للفتة المؤلف هذه وحسن رده وقدرته على التصور الواضح ٠ ففرعون كما تظهره الآيات يبدو الجاحد المنكر المتسخط الذي لا يسأل استفهاما ولا يلقي للسمع آذانا صاغية ٠ ومن هنا فان أسئلته لم تكن غير المشاكسة والمخالفة والعتو والخيلاء ٠ وما احسن ما تصدع به الجاحد والمنكر من ان تعدد له آثار النعمة وأعمالا هي فوق مقدور البشر ، عند ذلك تكبته وتتركه في الجو النفسي ، صدى الحق فيه يقرع أذنيه قرعا ٠ ما نفع من تأتيه بهدوء المنطق وهو الذي يشتم ويكابر ويتصدى فهم ام لم يفهم ؟ واذا فلا مغالطة ولكنها البلاغة تراد والفصاحة تقصد ، واهل البيان وشيوخ اللغة يعلمون أثر هـــذا

---

(٤٦) سورة الشعراء (٢٣ ، ٢٤) ٠

(٤٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧ ٠

الخطاب في نفوس تغلفها الغلظة وزان عليها ما اجترحته من فعائل ومحدثات[٤٨] ٠

أهل اللغة واصحاب العربية يعلمون ان لو اراد السائل المستنكر والمعاند والمكابر وهو فرعون في هذه الحالة ان يبغي الى الاستبيان والتثبت طريقا لقال : ومن رب العالمين ، على التوقير والتعظيم واستجلاء الماهية واعطاء من له صفة الربوبية بعض ما يليق بصفات ، ولكنه عدل عن ذلك ليسأل مستنكرا معاندا بصيغة تقصد الى التعمية وتجانب الوضوح ٠ ومن ثم فان موسى عليه السلام قد رتب في منطقه ان يكون وجود رب العالمين أمرا مفروغا منه ومن ثم طفق يعدد آلاء الله وآياته السابغات الواضحات ، وبذا يكون موسى عليه السلام قد انتقل من خانة أريد له أن يقيده مكانها الى موضع يحسن فيه الهجوم والتحدي والتبكيت[٤٩] ٠ ان هذه دقائق لا يفطن لها « الا من غلغل الفكر وأدق النظر ، ومن يرجع من طبعه الى ألمعيةيقوى معها على الغامض،ويصل بها الى الخفي »[٥٠] ولا يجلي المرء في لغته حتى يكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ، ويفصل بين الاساءة والاحسان ، بل حتى يفاضل الاحسان والاحسان ويعرف طبقات المحسنين[٥١] ٠ وهذا يحتاج الى صبر على التأمل ، ومواظبة على التدبر ، والى همة تأبى ان تقنع الا بالتمام ، وأن تربع الا بعد بلوغ الغاية[٥٢] ٠ ومن ثم تفاضل الناس في ذلك وتباينوا ، تفاضلوا ما بين لغة ولغة ، «وفضل بعض القائلين على بعض حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا ان يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم »[٥٣] ٠

---

(٤٨) في النقد الادبي التطبيقي ص ١٠٨-١٠٩ ٠
(٤٩) نفس المصدر ص ١٠٩ ٠
(٥٠) دلائل الاعجاز ص ٢٩٦ ٠
(٥١) نفس المصدر ص ٢٧ ٠
(٥٢) نفس المصدر والصفحة ٠
(٥٣) نفس المصدر ص ٣٠ ٠

ان تعلم اللغة مهمة تستغرق الحياة بأسرها[٥٤] ، ومع ذلك ، فان أعوام الدراسة الجامعية تمثل بعض اخصب الفترات في عملية التعلم ، لان المرء ينتقل فيها من مرحلة البلوغ الى مرحلة النضج ، ولأن الدراسة الجامعية في سائر حقول العلم والمعرفة قد اضحت في مسيس الحاجة الى استخدامات اللغة وتوظيفها[٥٥] • ولا يتوقع احد منك ان تغدو كاتبا مجيدا ، او خطيبا مفوها في عدد ساعات او في ايام قليلة ، « لان مالا يدرك على طول الزمان ومرور الايام ، لا يجوز ان تحيط به في ساعة من نهار »[٥٦] • واذا كان الانسان بالتعلم وبطول الاختلاف الى العلماء ومدارسة كتب الحكماء يجود لفظه ، ويحسن أدبه كما يقول ابو عثمان الجاحظ[٥٧] ، فاننا معنيون بالتمرس بالنصوص الجمالية والروائع الادبية والانماط العالية وطول تدبر لآيات كتاب الله تعالى ، المسطورة منها والمنظورة • فان وافى ذلك كله استعداد مؤات ، ونفس صافية مقبلة على ربها ، فان امر بروز ملكة الذوق ، والبصر بمواقع الحجة ، وفتح أبواب من اللطائف والاستحسان وتقدير الجودة والابداع – على النفس – نحسبه باذن الله تعالى مؤاتيا وقريبا •

---

(٥٤) انظر مقالة ابن خلدون في هذا الصدد المسماة باب ان العلوم الالهية لا توسع فيها الانظار ولا تفرع المسائل / المقدمة •

(٥٥) The Effective Writing, p. 1.

(٥٦) ابو القاسم الآمدي : الموازنة بين الطائيين ج ١ ص ٣٩٢ •

(٥٧) البيان والتبيين ط السندوبي ج ١ ص ٨٦ •



الباب الثاني

الحجة بالقرآن الكريم

بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بالخوارق والمعجزات التي تحج المعارضين وتكمح المعاندين • وحتى تكون الحجة آكد ، كان كل نبي يؤيد بما تقوم به الحجة على قومه في جنس ما مهروه ، وبرعوا فيه • يقول الامام عبد القاهر الجرجاني في ذلك : « انه لما كان السحر الغالب على قوم فرعون ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامه في زمانه ، جعل تعالى معجزة موسى عليه السلام في ابطاله وتوهينه ، ولما كان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب جعل الله تعالى معجزته في ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى ، ولما انتهوا الى ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذكروا ما كان الغالب على زمانه لم يذكروا الا البلاغة والبيان والتصرف في ضروب النظم »(١) •

روى انه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي الا أوتي ، ما مثله آمن به البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحي به الي ، واني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » • وقال صلى الله عليه وسلم : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، كان كل نبي يبعث في قومه وبعثت الى كل أحمر وأسود ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الارض طيبة وطهورا ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت جوامع الكلم »(٢) •

كانت معجزات الانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم آنية ، ترتبط بزمان معين ، ومكان معين ، ومن ثم ذهبت بذهاب الاقوام التي عاينتها ، اذ كيف ثمة تقوم الحجة على أناس هم خارج هذه المشاهد او هم تالون لها زمنا ؟ ! هذا اذا سلم النص من التزوير والتحريف والدس والتشويه•

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٠٩ •

(٢) ابن رشيق ، العمدة ، ج ١ ص ٢٥٤ •

فكيف اذا ضاعت النصوص ، واعتراها ما اعترى أقوامها من يد البلى ، وكر الجديدين ؟ !

ان هذا المنطق وحده هو الذي يتفق وأبسط قواعد النظر والاستنتاج، وهو المنطق أقامه الاسلام حين صرح على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن كل نبي أوتي ما مثله آمن به البشر وان كل نبي كان يبعث الى قومه خاصة ، وانه يرجو ان يكون أكثر الانبياء تابعا يوم القيامة .

ولا عبرة فيما يزعمه النصارى من عالمية رسالة عيسى عليه السلام كما كان يكرز بها بولس في أهل رومية ، ونحن نحب نبي الله عيسى ونعتقد انه رسول حق الى بني اسرائيل خاصة (واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد ... الآية) الصف : ٦ . على ان النصرانية التي تشيع بين الناس اليوم ، وتساندها قوى كثيرة ، كما يقول الشيخ محمد الغزالي ، تخالف رسالات السماء كلها ، اذ هي فلسفة ، تجعل من عيسى الها ، او شبه اله ، يرسل الرسل ، وينزل الكتب ، يغفر الذنوب ، ويحاسب الخلائق . (٣) وهو الرأي كان قد قرره القاضي عبد الجبار الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥ هـ حين قال ان النصرانية ترومت ، اذ أخذت بأخلاق الروم وتقاليدهم وآراء الفلسفة اليونانية وعقائدها(٤) .

شاء الله تعالى ان تكون معجزة محمد صلى الله عليه وسلم بيانية عقلية تقوم على التأمل والنظر والاستدلال والاستنتاج . وحتى تكون المعجزة أبين ، والحجة أنصع ، كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ الكتب ، ولا يعرف ما فيها ، ولا اختلف الى أهلها ، ولا اختلفوا اليه . قال تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك

---

(٣) من مقال بعنوان : عالمية الرسالة / مجلة الوعي الاسلامي السنة الثالثة عشرة العدد ١٥ حزيران ١٩٧٧ م .

(٤) تثبيت دلائل النبوة ج ١ ص ٨٠ وانظر الفكر الاسلامي وطرائق النقد الادبي ص ٨٧ .

اذا لارتاب المبطلون) العنكبوت : ٤٨ · وقــال تعــالى : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) النحل : ١٠٣ ·

قد يظن بعض الناس ـ كما يقول شيخ الازهر د· عبـد الحليـم محمود ـ ان العلم الذي يدعو اليه القرآن انما هو العلم بالدين ، اي العلم بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والعلم بالفروض الدينية مــن صلاة وصيام وزكاة وحج ، والعلم بالقانون الاخلاقي والتشريع الالهي · والواقع ان العلم بالدين : عقيدة واخلاقا وتشريعا مما يحث عليه الاسلام ، بل هو في المرتبة الاولى ، لان الايمان هو الاساس في كل دعوة دينية منذ ان كان الدين · ومعرفة الانسان بالله صلته بالله عــن طريق رسله ، هي أسمى معرفة بالنسبة للانسان باعتباره فردا ، وبالنسبة لأمن المجتمع وطمأنينته على الدماء والاموال والاعراض · [٥] ويضيف د· عبد الحليم محمود قوله : بيد انه اذا كانت المعرفة بالله عن طريق رسله لها الصدارة في الاجواء الدينية ، فان القرآن بين لنا ان الكون كله هو كتاب للعلم بالله سبحانه وتعالى ، انه مجموعة من النواميس الالهية التي يؤدي اكتشافها الى زيادة المعرفة بالله وزيادة الخشية منه · قال تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها · ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود · ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك · انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور) ·

لقد اتى قوله تعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) ، فيمعرض الحديث عن تنسيق العالم المادي وترتيبه والابداع فيه[٦] · ويقول د· عبد الحليم محمود : لقد دفع القرآن المسلمين دفعا الى مختلف مجالات المعرفة في الكون · لقد دفعهم الى مجال المعرفة بالتاريخ الذي يسميه «أيام الله» أيام الله التي أنعم فيها على من اتبع هديه واستقام على أمره ودمر من سار في طريق المعصية والشر : (قل سيروا في الارض فانظروا

(٥) من مقالة بعنوان الاسلام والعلم / مجلة البلاغ عدد ٣٧٦ تاريخ ١٩٧٦/١٠/١٧ م ·
(٦) نفس المصدر والصفحة ·

كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشيء النشأة الآخرة . ان الله على كل شيء قدير) .

(قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، كان اكثرهم مشركين) .

(أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم . كانوا هم أشد منهم قوة وأثارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق) .

(ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض مالم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الانهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) .

ودفعهم الى المعرفة بالفلك حينما أقسم ببعض الكواكب مشيرا الى منزلتها بهذا القسم وحينما أقسم بمواقع النجوم ، والقسم بمواقع النجوم فيه ما فيه من بعث للتأمل والتدبر والبحث ، يقول سبحانه : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم) . ويقول سبحانه : (والنجم اذا هوى) . ويتحدث[7] سبحانه عن النظام الدقيق الذي تسير عليه الافلاك : (لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر . ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) .

وكما دفع القرآن الى التعرف على « ايام الله » وكما دفعهم الى النظر والتأمل والبحث في النجوم والكواكب ، فانه دفعهم على وجه العموم الى البحث والنظر والتأمل في الكون كله ، والآيات القرآنية في هذا المجال تتعاون وتتناسق لتوجه الى التنقيب في جميع مجالات الكون لاكتشاف نواميس الله في كتابه هذا المنظور . يقول سبحانه : (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من

(٧) نفس المصدر والصفحة .

كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) ٠

ويقول سبحانه : (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) ٠

ويقول سبحانه : (تلك آيات الكتاب والذي أنزل اليك من ربك الحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ٠ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ٠ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ٠ وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ٠

ويمن(٨) الله سبحانه وتعالى على الانسانية أجمع بآياته الباهرة ، ضاربا المثل للعقلاء المستبصرين ليتجهوا بالبحث والدراسة الى ما وجههم سبحانه نحوه ، يقول سبحانه : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون) ٠ وقوله (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ٠ وقوله تعالى : (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) ٠ وقوله تعالى : (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وقوله تعالى (ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذاً أنتم تخرجون ، وله من في السموات والارض كل له قانتون) وقاله تعالى : (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) ٠

---

(٨) نفس المصدر والصفحة ٠

ولقد سخر[9] الله سبحانه وتعالى البحر ، يقول سبحانه : (الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار) ويقول تعالى (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها • وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون • وألقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون) ويقول سبحانه : (ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ، ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) • وينتهي الأمر في القرآن — كما يقول عبد الحليم محمود[10] — بان الله سبحانه وتعالى سخر الكون كله للانسان • يقول سبحانه : (ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض) • ويقول سبحانه : (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج • والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب • ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد • والنخل باسقات لها طلع نضيد • رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) ويقول تعالى : (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السماء كيف رفعت • والى الجبال كيف نصبت • والى الأرض كيف سطحت) •

ومعنى هذا كله — كما يقول د• عبد الحليم محمود[11] — ان الله سبحانه وتعالى يوجه نظر الامة الاسلامية الى دراسة كتابه المرئي ، انه سبحانه يوجه نظرها الى البحث في الآفاق على مختلف أوضاعها • انه يوجه نظرها الى البحث في الارض والسماء وما بين الارض والسماء سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟) •

---

(٩) نفس المصدر والصفحة •

(١٠) نفس المصدر والصفحة •

(١١) نفس المصدر والصفحة •

لقد طلع الاسلام على الدنيا بأسرها ، فلم يمالىء ، ولم يهادن ، ولم يقبل بأنصاف الحلول . وقد تصدى الاسلام للأديان السابقة ، بل والبدع اللاحقة ، وصفى حسابه معها . فهو قد أكفر يهود وبرىء منهم ، وحاور النصارى وحجهم ، وقومه من قريش والعرب وبريء منهم ، ونزعوا كلهم في حربه عن قوس واحدة ، فما وهن له عزم ، ولا ركن الى يأس ، ولا تزال قولته الشهيرة الى عمه ابي طالب وقد نصحه ان يكف من شتمه لآلهة قريش وتسفيه أحلامهم تفيض بالايمان : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك أمر هذا الدين ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وقد أعلن الاسلام انه قد جب أوهام القرون الاولى وطقوسها ، فلا غول ، ولا عنقاء ، ولا سحر ولا كهانة ، ولا شعوذة ، ولا عرافة ، ولا طيرة . وهكذا تحرر العقل الاسلامي من الأوهام وطلعت سنابك خيل المسلمين تجوز الأقطار من أقصاها الى أقصاها تخرج الناس من عبادة الناس الى عبادة الله الواحد القهار . ولعل هذا في الاسرار التي جعلت كل اقليم فتحه المسلمون وحملوا اليه هذا الدين أن يبقى - رغم المكائد والمحن وضراوة التدبير - منتميا الى هذا الدين وهذه الأمة .

أما في حواره مع أهل الكتاب(١٢) ، فقد ربط الاسلام الديانات السماوية كلها برباط واحد ، فالرسل كلهم حق ، لا تفريق بينهم ، وكلهم بلغوا عن ربهم ، وأدوا الأمانات . وهم جميعا قد هدوا الى الطيب من القول والعمل ، وهدوا الى سواء الطريق ، وقد أخبر الله الكثير من أعمالهم وأقوالهم وتجاربهم ، وساق لنا مواقف انسانية غاية في الجمال والتأثير . يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل

---

(١٢) لمزيد من الوقوف على حيثيات الحوار مع أهل الكتاب ننصح بقراءة كتابنا : الفكر الاسلامي وطرائق النقد الادبي .

ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما ٠ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما) النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥ .

ويتوجه الاسلام الى أهل الكتاب بهـذا التفصيل والمس الرقيق : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ٠ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

وقد أشار الله تعالى الى الترتيب المسبق في تدرج الرسالات السماوية تدرجا يوائم استعداد الانسانية وعروجها في درجات التقدم والتطور ٠ وان ما أتى به لم يكن الا عن سابق حكمة وتنظيم ٠ ان ما من نبي كان يبعث الا ويعرف الكتاب الذي تقدم ويتم ما يستطيع ، ويترك البشائر لمن يتلوه ٠ يقول تعالى (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتـم وأخذتم على ذلكم اصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وانا معكم مـن الشاهدين) . آل عمران: ٨١ .وهذا ما يتفق وابسط القواعد ومعطيات الامور .

وهكذا تتعالى رسالة الاسلام لتكون عالمية تخاطب العقل الانساني في كل زمان ومكان (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا) . النساء: ١٧٤ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « . . . وبعثت الى كل أحمر واسود ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، لا فرق بين عربي وأعجمي ، ولا بين أعجمي وعربي الا بالتقوى ٠ الناس سواسية كأسنان المشط ، والخلق عيال الله ٠

وجاور الاسلام مشركي العرب ٠ وقد كان بدهيا والقرآن نزل بلسان عربي مبين أن يتوجه الى هؤلاء بالدعوة وان يجري معهم الحوار الذي تفقهه عقولهم ٠ ولم يأل الاسلام جهدا في الرد على مزاعم هؤلاء وافتراءاتهم

حتى لقد انتدب حسان بن ثابت ليرد على هؤلاء في قول الشعر ، وينافح عن الدين الجديد وأهله باللغة التي يفهمها هؤلاء وتؤثر فيهم .

وقد أشار الاسلام الى عناد العرب ولجاجهم ومكائدهم . من ذلك ما جاء عن الوليدين المغيرة المخزومي انه تشاور مع أصحابه واستطلع رأيهم في محمد (صلى الله عليه وسلم) ففكر وقدر ونظر وبسر ثم قال (ان هذا الا سحر يؤثر) . المدثر : ٢٤ .

والى هذا المعنى بعينه اشار القرآن الكريم حين قال (قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) سبأ : ٤٦ . وأشار الى النضر بن الحارث بن كلدة الذي كان قد رحل في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فارس وطلب ما يكيد به الاسلام والمسلمين فوجد أحاديث رستم واسفنديار والفرس فاشتراها وقدم بها مكة فجعل يتحدث بها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من مقعده خلفه فيه النضر ، وحدثهم بتلك الاحاديث فأنزل الله تعالى فيه قوله : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) . لقمان: ٦. كما اشار تعالى الى قول ابي حذيفة بن المغيرة (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه)الاسراء :٩٠ ــ ٩٣. ويأتي الرد واضحا : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا: انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون) الحجر : ١٤ .

وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بتبديل هؤلاء القوم اللد أناسا يحبهم ويحبونه قال تعالى : (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين)الانعام:٨٩ . فأبدله الله خيرا منهم بالمهاجرين والانصار .

وحاور الاسلام أهل الملل والنحل والدهريين وأشار الى خلافاتهم . قال تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء

شهيد) الحج : ١٧ وأشار الى الدهريين فجاء فيه من سورة الانعام : (وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) الآية ٢٩ · وجاء فيه مـن سورة الجاثيـة (وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) الاية ٢٤ ·

وقد جاءت فكرة الله في الاسلام هي المتممة لأفكار كثيرة موزعة في العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية التي تدور عليها · ولهذا بلغت المثل الأعلى في صفا تالذات الالهية وتضمنت تصحيحا للضمائر ، وتصحيحا للعقول في تقرير ما ينبغي لكمال الله بقسطاس الايمان وقسطاس النظر والقياس · ومجمل ما يقال في عقيدة الذات الالهيـــة ـ كمـــا يقول العقاد(١٣) ـ غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات فالله يحيط بالزمان والمكان ولا يحدانـــه ، وهو الاول والآخر والظاهر والباطن ، واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد · ليس كمثله شيء لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين ·

وقد أحاط القرآن الكريم بكل الخليقة مبتداها ومنتهاها ، فالقرون الاولى علمها عند الله لا يضل الله ولا ينسى ، والطيور والحيوانات والبهائم أمم أمثالنا ما فرط الله في الكتاب من شيء · وهل أكرم في صورة العدل الالهي من حشر امرأة في جهنم ودخولها النار في قطة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض ، ومن أن بغيا من بني اسرائيل سقت كلبا عطشان فغفر الله لها ·

هل أوفى من هذا الجزاء الذي يأخذ الله تعالى للضعيف والمظلوم حتى انه ليقتص يوم القيامة من الشاة القرناء للشاة الجماء ؟ وما أجمل من هذا القول وأوقعه في النفوس لمن ألقى السمع وهو شهيد (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين) الانبياء : ٤٧ ·

---

(١٣) كتاب الهلال عدد ٤٢ ص ١٤٦ ·

هذا هو البيان القرآني في تكامله وشموله ومخاطبته العقل البشري في كل زمان ومكان · ومن اول يوم للدعوة الاسلامية والرسول صلى الله عليه وسلم يتوجه برسالته الى الناس جميعا في المغارب والمشارق · وكانت النصوص القرآنية تترى تؤكد هذه العالمية وتلح عليها · قال تعالى : (ان هو الا ذكر للعالمين · لمن شاء منكم أن يستقيم) التكوير ٢٧_٢٨ · وقال تعالى : (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون · وما هو الا ذكر للعالمين) القلم : ٥١ ، ٥٢ ·

وقال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سبأ : ٢٨ ·

وقال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) الفرقان : ١ ·

وقال في سورة يوسف : (وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين) ١٠٤ ·

وقال تعالى في سورة الانعام : (وأوحي الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) : ١٩ ·

وقال في ذات السورة : (اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده · قل لا أسألكم عليه أجرا ان هو الا ذكرى للعالمين) : ٩٠ ·

وهذه الآيات كلها مكية ، أي أن عالمية الرسالة تقررت ـ كما يقول الشيخ محمد الغزالي ـ منذ الوحي وفي الأيام التي كانت الدعوة فيها تعاني الامرّين (١٤) .

ومن أول يوم وطد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة دولته انفذ الى الناس جميعا دعوته · فهو قد أنفذ الرسل الى سائر أقطار الأرض والأمم والملوك · ففي سنة ست للهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١٤) من مقال بعنوان : عالمية الرسالة للشيخ محمد الغزالي / مجلة الوعي الاسلامي عدد حزيران ١٩٧٧ م ·

الرسل ، فبعث في ذي الحجة حاطب ابن أبي بلتعة من لخم حليف بني أسد ابن عبد العزى الى المقوقس، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة الى الحارث ابن أبي شمر الغساني ودحية بن خليفة الكلبي الى قيصر · وبعث سليط بن عمرو العامري عامر بن لؤي الى هوذة بن علي صاحب اليمامة وبعث عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ، وعمرو بن أمية الضمري الى النجاشي · وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى أخي بني عبد القيس صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص الى جعفر بن جلندى وعباد بن جلندى الأزديين صاحبي عمان[١٥] ·

وهكذا قامت الحجة على معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أقطار العالم المعروفة آنذاك من عرب وغير عرب · وهكذا يلتقي البعدان : النص القرآني والمسلك الالتزامي للرسول صلى الله عليه وسلم او ودولته على أمر قد قدر · واني في هذا المقام لأنظر باشفاق الى بعض متنصرة العرب او الغرب – لا أدري – ممن يشغبون حتى على وضوح الشمس عالية النهار – ممن يشككون في صحة هذه الوقائع بحجة انهم يستبعدون ان يكون العرب قد بلغوا من البسطة والمناعة وهم لا يزالون محصورين في الجزيرة ما يحملهم على مخاطبة كبار الملوك يومئذ[١٦] · ومن عجب أن أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في كسرى وقيصر وزوال ملكيهما كل ذلك قد جاء على نحو ما بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٧] وآلت الأمور الى ما يحب المسلمون ، ولم يزل هؤلاء الذين حيل بينهم وبين تذوق حلاوة الايمان يجادلون في تواتر واجماع وتحقيق ·

---

(١٥) تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٦٤٤ وما بعدها ·

(١٦) أنيس المقدسي : تطور الاساليب النثرية في الادب العربي ص ٣٣ ·

(١٧) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل · ابن تيمية الجواب الصحيح ص ١٠٧ ·

الباب الثالث

الاعجاز البياني

نزل القرآن الكريم يحاور الانسان في كل زمان ومكان بلسان عربي مبين · ولو أن قول الله تعالى في محكم الكتاب : (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين · وضرب لنا مثلا ونسي خلقه وقال من يحيي العظام وهي رميم · قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم · الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون · أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون · فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) يس ٧٧ـ٨٣ · وقوله تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا) الاسراء : ٤٢ · وقوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) المؤمنون : ٩١ · وقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) الانبياء : ٢٣ · ترجم الى لغات العالم جميعا في كل عصر ما انتقض جمال المعنى ولزوم الحجة في هذا القول المبين · وها نحن على ظهر البسيطة لا نكاد نجد زعامتين تتجاوران في اقليم واحد حتى تحتوي احداهما الاخرى وبعنف أحيانا غير آبهة بصلات القربى والرحم واعتبارات خلقية ـ حتى لقد قالت العرب : الملك عقيم ·

واذا كان هذا واضحا جليا في الهيمنة الارضية وفي تواريخ البشر وأعرافهم ومنطقهم فكيف يقبل العقل البشري ـ والوثني والمشرك والمؤمن بتعدد الآلهة ـ ان تتعدد الزعامات في ملكوت السموات والارض ؟ أن هذا يتناقض ومنطق الانسان في حياته الارضية فكيف يقبل هذا التناقض في تفسير خلق السموات والارض ؟ ولو قد كان تعدد الآلهة كما يزعم

البعض ـ وبخاصة العقل اليوناني الذي كان أكثر العقول شغفا في بحث ماهية الوجود وفي تتبع الانسجام والتناسق في الافكار ـ اذاً لكان الصدام بين هذه الآلهة أمرا واقعا ولآلت في النهاية الى اله واحد تكون له الغلبة والسيادة واذن يؤول الامر الى التوحيد وهو ما تنزل به الله تعالى ٠

وهكذا فان الحجة تقوم على الزنجي ، والنبطي ، وعلى الرومي ، والهندي ، وعلى الاوروبي ، والامريكي ، وبني البشر جميعا ٠ واذا كان هذا الاعجاز يحج هؤلاء في المعاني ، فانه قبيح بالعربي الصليب ، او من يحسن اللسان العربي الا يعرف اعجاز كتاب الله تعالى الا من جهة المعنى فينبغي من هذه الجهـــة ـ كما يقول أبو هلال العسكري ـ ان يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده ٠٠٠ اذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفـــة بالله جل اسمه[١] ٠

وحتى تكون الحجة بالقرآن الكريم قائمة على وجه الدهر ، تعرف في كل زمان ، ويتوصل اليها في كل أوان ، ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف ، ويأثرها الثاني عن الاول ـ ليظل البرهان منه لائحا معرضا لكل من أراد العلم به ، وطلب الوصول اليه ، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها ، والعلم بها ممكنا لمن التمسه ، اقتضى ذلك حفظه ، والقيام بأداء لفظه ، على النحو الذي أنزل عليه ، وحراسته من أن يغير ويبدل[٢] ٠

ولما كان القرآن الكريم قد نزل على قلب رجل من قريش وهم أمة أمية قال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) الجمعة : ٢ وسواء أكانت الأمية أمية الكتاب المقدس او قلة انتشار الكتابة فان الامرين مرتفقان اذ لو نزل كتاب لأوجد مدارس في الكتابة لان الكتابة

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٧ ـ ٨ ٠

(٢) انظر : دلائل الاعجاز ص ٦ ٠

كانت في الماضي رهنا برجال الدين والأحبار والكهنة ـ فقد كان لزاما ان يتغلب على عقبات كثيرة تحد من سرعة انتشار النص وتداوله ، وبخاصة أمية القراءة والكتابة .

أمية القراءة والكتابة :

أما مرد قلة انتشار الكتابة فنحسبه لسببين رئيسين :

١ ـ صعوبة الرسم الكتابي في الحروف العربية : فقد كان العرب في الأقطار التي كانت الكتابة شائعة فيها ، أقتبسوا من الابجدية الفنيقية ترتيبها للحروف ، ذلك الترتيب الذي ورثته عنها أيضا جميع الأبجديات السامية الأخرى مضافا اليها الأحرف العربية الزائدة وهي ستة أحرف : ث خ ذ ض ظ غ وقد أطلق العرب عليها اسم «الروادف» مؤلفة كلمتي شخذ ، ضظغ[٣] . وكانت كتابة الحروف خالية من النقط حتى سنة ٨٩ هـ (٧٠٧م) استطاع نصر بن عاصم الليثي بأمر من الحجاج أن يدخل النقط الى الحروف العربية[٤] ولعل هذا يفسر لنا كيف أن شاعرا من شعراء المعلقات كطرفة بن العبد يحمل رسالة الى والي البحرين وفيها حتفه دون أن يفك الخط ولعل هذا يفسر كيف أن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما كانتا تنظران في المصحف ولا تكتبان[٥] .

٢ ـ صعوبة أدوات الكتابة : وقبل ان يعرف العرب صناعة الورق سنة ٩٠ هـ ونقلها عن الصين[٦] فقد كانت أدوات الكتابة بدائية ومعسرة . ومن أدوات الكتابة التي عرفوها : الرق وهو الجلد والأديم والقضيم (الجلد الابيض) والقماش الحرير او القطن ، والنبات وهو العسيب جمعه عسب وهو السعفة او جريدة النخل اذا يبست وكشط خوصها والرقاع والأكتاف والأقتاب والعظام والحجارة واللخاف

---

(٣) د . عدنان الخطيب المعجم العربي ص ١٤ ـ ١٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٥) البلاذري . فتوح البلدان ، ص ٤٥٨ .

(٦) مصادر الشعر الجاهلي ص ٨٩ .

والكرانيف (أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع)(٧) ٠

ازاء ذلك وجهت الرسالة الاسلامية الجهود نحو اتجاه جديد لاحتضان الدعوة والحفاظ عليها ٠ ولا غرو فقد كان أول ما نزل مــــن القرآن قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ٠ خلق الانسان من علق ٠ اقرأ وربك الأكرم ٠ الذي علم بالقلم ٠ علم الانسان مالم يعلم) ٠ سورة العلق : ١ـ٥ ٠ وواضح ان الاتجاه الجديد كان في الحث على تعلم القراءة والكتابة وأدواتها ٠ بل لقد فادى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسارى بدر مقابل أن يعلم كل واحد عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة ـ كما هو مستفيض في كتب السير والتواريخ والمغازي ٠ وهذا يعني أن قدسية القراءة والكتابة والرغبة فيهما جائز ان تعبر حتى على جسور تحفها الأخطار ٠

وكان أن انتدب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبة للوحي يدونون ما ينزل من القرآن الكريم ويكتبون الآيات على ما تيسر من أدوات الكتابة من رقاع وأكتاف وعسف ٠ وكان من الكتبة زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ٠ قال عثمان بن عفان : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، واذا أنزل عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا »(٨) ٠ وهكذا كان التدوين توقيفا من رب العالمين وجاء هذا مصداقا لقوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه) القيامة : ١٦ـ١٩ ٠

---

(٧) المصدر السابق ص ٧٨ ـ ٨٣ ٠

(٨) ابو بكر السجستاني ـ كتاب المصاحف ص ٣٢ ٠ وانظر محمد ابو زهرة المعجزة الكبرى ص ٤٨ ٠

وفي خط مواز وعلى ذات الدرجة من الحيطة والرغبة سار الاسلام عنى توجيه همم المسلمين الى حفظ القرآن الكريم في الصدور ·

ولم يقتصر الأمر على الحفظ وحده بل جاوزه الى الطريقة في القراءة التي أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان القرآن الكريم · قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن في رمضان ، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين ، فكنت اذا فرغ أقرأ عليه ، فيخبرني أني محسن[٩] · وقال عبد الله بن مسعود : « والله ما نزل من القرآن الا وأنا أعلم في أي شيء نزل ، ما أحد أعلم بكتاب الله مني ، وما أنا بخيركم ، ولو أعلم مكانا تبلغه الابل أعلم بكتاب الله مني لأتيته »[١٠] ·

وحتى يولي القرآن الكريم نفسه الى الرواية الشفوية واللوطة بالقلب والعلوق بالذاكرة كان القرآن الكريم ذروة متسقة من الجمال الفني · وعلى ما احتواه من طرق للموضوعات المختلفة من وعد ووعيد واخبار وتشريع وقصص ودعوة الى التفكير وما صرفت فيه المعاني القرآنية من استفهام الى تقرير ومن استنكار الى توبيخ الى تهذيب وتأديب فقد حافظ على سمت واحد من حيث جمال الموسيقى وروائية المبنى والاتساق — وهو ما أحسن التعبير عنه ابن مسعود حيث قال : « اذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن »[١١] ·

وقال صلى الله عليه وسلم من شاء ان يرتع في الرياض الأنائق فعليه بآل حم[١٢] · ان المتدبر لعوامل التيسير في القرآن الكريم حيث يقول تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) في أربعة مواضع من سورة القمر ، ليظفر بالكثير المطرب والمعجب على هذه السبيل · فالارقام

(٩) كتاب المصاحف ص ١٦ · المعجزة الكبرى ص ٦٠ ·
(١٠) كتاب المصاحف ص ١٦ ·
(١١) دلائل الاعجاز ص ٢٥٣ ·
(١٢) المثل السائر ج ٢ ص ٣٥٦ ·

التي تقتل الأدب وتجفف روائية السياق والنص ، هذه الأرقام تكتسي في القرآن الكريم جمالا في النسق علاوة على حسن جمال في الايقاع حتى لا تمل له الأذن سماعا وترديدا • وحسبك من ذلك قوله تعالى من سورة الكهف : (ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) : ٢٥ • وليجرب من شاء وضع الرقم ٣٠٩ في أي نسق أو سياق ثم فلينظر كم درجة التئامه وجماله بالقياس الى هذا الذي يعجب ويطرب • ومن ذلك قوله تعالى من سورة الحاقة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية • سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) ٦ـ٧ • وقوله تعالى (اذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) يوسف : ٤ • وقوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) الأعراف : ١٤٢ • وقوله تعالى : (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) البقرة : ٦٠ • وقوله تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله) التوبة : ٣٦ • وقوله تعالى (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) الأنفال : ٦٥ • وقوله تعالى : (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة) البقرة : ١٩٦ •

وانظر جمال التعداد والتفصيل في قوله تعالى : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) التوبة : ٦٠ • أرأيت كيف يعطي التفصيل من نفسه للقارىء حتى لا يمل له ترديدا •

وانظر جمال التعداد والتفصيل في قوله تعالى (يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس لعلهم يعلمون • قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون • ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون • ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) يوسف ٤٦ـ٤٨ •

وحتى لا تغمض الاسماء على جيل دون جيل ، وتثقل على أصحاب لغة دون لغة من حيث الألفة ومخارج الحروف كان القرآن الكريـــم يمر بالحوادث والقرائن من غير ما تصريح للاسماء خلا أسماء محمد وزيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير كنية ابي لهب · وواضح أن هذه الأسماء هي ثلاثية أو رباعية ومن ثم تبقى خفتها على اللسان واردة في أي لغة وفي أي جيل · يقول تعالى في أبي بكر رضي الله عنه : (اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار) التوبة : ٤٠ وقال تعالى في عبد الله بن أم مكتوم (عبس وتولى · أن جاءه الأعمى · وما يدريك لعله يزكى · أو يذكر فتنفعه الذكرى) عبس : ١ـ٤ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث لقي ابن أم مكتوم : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي · وفي يوسف عليه السلام وامرأة العزيز : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) يوسف : ٢٣ وقوله تعالى (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه) يوسف : ٢١ ·

ان كل ذلك لما يجعل الآيات قريبة من النفس متلطفة في الدخول اليها والملصوق بالذاكرة · ولذا ليس من عجب ان حفظ الصحابة الأطهار والتابعون لهم باحسان – القرآن الكريم في صدورهم وكان ان ضرب ابناؤهم أرقاما قياسية في المنافسة في الحفظ · لقد حفظ محمد بن جرير الطبري القرآن غيبا وله من العمر سبع سنين وحفظه محمد بن ادريس الشافعي وله من العمر عشر سنين وحفظه محمد بن اسماعيل البخاري وهو دون العاشرة علاوة على حفظ الحديث النبوي الشريف ·

فاذا أضفنا الى ذلك كله ان الله تعالى يأجر على التلاوة وان خير الناس من تعلم القرآن وعلمه وان الله يجزي القارىء · قال صلى الله عليه وسلم يقال لصاحب القرآن اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فان منزلتـك عنـد آخر آيـــة تقرؤهـــا[١٣] · واذا علمنـــا ان الصلوات

---

(١٣) المثل السائر ج ٣ ص ١٢٠ ·

الخمس المفروضة علاوة على النوافل يتعبد فيها بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم مع فاتحة الكتاب(١٤) تبين لنا الحوافظ الكثيرة التي عملت على صون القرآن الكريم والحفاظ عليه جيلا جيلا · وها نحن في أخريات القرن الرابع عشر الهجري والقرآن الكريم يتلى صباح مساء ، يقرع الآذان ، ويصدع النفوس ، ويتحدى الانس والجن ليأتوا بسورة من مثله · ولا يزداد حفظ القرآن الكريم مع تقدم الاكتشافات وتحسين المخترعات العلمية الا مزيدا من التكفل بالحفظ والصون كي يبقى البرهان من القرآن الكريم لائحا ومعرضا لكل أهل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها · وما من لغة من لغات البشر التي قدر لها ان تسع الحضارات الا ذهبت بذهاب أصحابها الا العربية ، فانها لم تمحق وبقيت رغم القوارع والنكبات حية سائرة الى النماء · ومن كان يدور في خلده ان المغول الذين دوخوا العالم الاسلامي وقضوا على كثير من التراث الفكري واللغوي سيدخلون الاسلام فيصبحوا أداة نشره في العالم في العصور الوسيطة · ان ذلك كله مصداق قوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) الحجر : ٩ · وهذه بشرى بتكفل حفظ العرب الذين هم أهل هذه اللغة الشريفة التي نزل القرآن الكريم بلسانهم · فليتهم يتدافعون الى نصرة الله ونشر دينه وتيسير العربية على الناس جميعا !

جمع القرآن الكريم :

ولعل جولة سريعة في أجواء جمع القرآن الكريم في كتاب واحد وارسال نسخ من النسخة الامام الى الامصار الاسلامية لتوحي بالأسباب التي هيأت لهذا التكفل بالحفظ والصون والتي لا تدع مجالا للشك في أن وراء هذا الجهد تدبيرا ·

---

(١٤) وينبغي ان نعيد الى الاذهان ان الاسلاف كانوا يقرأون في الصلوات السور الطوال وان كان التخفيف جائزا · كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب الانعام والاعراف وكان عمر يغلس بالفجر ويقرأ سورة يوسف ويونس · · كتاب المصاحف ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ·

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرتل القرآن الكريم كما علمه جبريل عليه السلام وكان يقرئه أصحابه وكان يأمر بتدوينه على ما يتيسر من أدوات الكتابة وفي معظمها العسب والقضيم (الجلد الابيض) والكرانيف (اصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع) والرقاع والأكتاف والاقتاب ·

وكان ان انتشر القراء يعلمون القرآن الكريم الى ان كانت حروب الردة وواقعة اليمامة · فعن الزهري عن عبيد بن السباق ان زيد بن ثابت حدثه قال : « أرسل الي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وكان عنده عمر فقال : ان هذا أتاني فقال : ان القتل قد استحر بالقراء واني أخشى ان يستحر القتل بالقراء في سائر المواطن فيذهب القرآن وقد رأيت ان تجمعوه · فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم · فقال عمر : هو والله خير فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدره ورأيت فيه الذي رأى · فقال ابو بكر : انك شاب عاقل وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانتهمك فاكتبه »[١٥] وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه : « فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علي منه ··· فتتبعت القرآن أنسخه من الصحف والعسب واللخاف (الحجارة الرقاق) وصدر الرجال »[١٦] · ويروي السجستاني باسناد ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد جمع القرآن قام في الناس فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأتنا به وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان[١٧] · وهكذا أتيح للقرآن الكريم أن يجمع مكتوبا في نسخة واحدة بين يدي كتاب من خلال العسب واللخاف وان تعرض كل آية على شهيدين من المسلمين العدول وهو حد الشهادة في الاسلام · عن مالك بن أنس جد مالك بن أنس الفقيه قال : « كنت فيمن أملي عليهم

---

(١٥) كتاب المصاحف ، ص ٦ ·

(١٦) نفس المصدر ص ٧ ·

(١٧) نفس المصدر ص ١٠ ·

فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعله أن يكون غائبا او في بعض البوادي فيكتبون ما قبلها وما بعدها ويدعون موضعها حتى يجيء او يرسل اليه »[18] • وفي هذا الجمع يقول زيد بن ثابت : فتتبعت القرآن أنسخه ••• حتى فقدت آية كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ••• الى قوله وهو رب العرش العظيم) سورة براءة : ١٢٨ فالتمستها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت فأثبتها في سورتها[19] وكان أن كتب المصحف الامام بلغة مضر • فعن عبد الله بن فضالة قال : لما أراد عمر أن يكتب الامام أقعد نفرا من اصحابه وقال : اذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر فان القرآن نزل على رجل من مضر •

جمع القرآن الكريم في خلافة عثمان :

عن ابن شهاب عن سالم وخارجه أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس وكانت تلك الكتب عند ابي بكر حتى توفي ثم عند عمر حتى توفي ثم كانت عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم • فأرسل اليها عثمان فأبت أن تدفعها اليه حتى عاهدها ليردنها اليها فبعثت بها اليه فنسخها عثمان في هذه المصاحف ثم ردها اليها[20] •

وقد سلك عثمان رضي الله عنه في النسخ ما كان سلكه سلفه عمر رضي الله عنهما اذ قام في الناس فقال : من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به وكان لا يقبل من ذلك شيئا حتى يشهد عليه شهيدان[21] •

---

(١٨) كتاب المصاحف ص ٢٢ •

(١٩) نفس المصدر ص ٧ •

(٢٠) نفس المصدر ص ٩ •

(٢١) نفس المصدر ص ١٠ عن مصعب بن سعد ان عثمان ناشد الناس : أعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به ، وكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلا رجلا فناشدهم : لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملاه عليك : فيقول : نعم (كتاب المصاحف ص ٢٣ ـ ٢٤) •

وكان السبب في جمع القرآن ونسخ المصاحف في خلافة عثمان ما استشعره الصحابي حذيفة بن اليمان مـــن خوف الاختلاف بين المسلمين . فعن الزهري عن أنس بن مالك ان حذيقة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فرج (ثغر) أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فرأى حذيفة اختلافهم في القرآن فقال لعثمان بن عفان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى . فأرسل الى حفصة ان ارسلي الي بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت الى عثمان بالصحف فأرسل عثمان الي بالصحف[٢٢] . وقد ارسل عثمان الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن الزبير ان انسخوا الصحف في المصاحف وقال للرهط القرشيين الثلاثة ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم[٢٣] . قال الزهري : واختلفوا يومئذ في التابوت والتابوة فقال النفر القرشيون التابوت وقال زيد التابوة فرفع اختلافهم الى عثمان فقال اكتبوه التابوت فانه بلسان قريش[٢٤] . ذكر ابو حاتم السجستاني قال : لما كتب عثمان المصاحف حين جمـــع القرآن كتب سبعة مصاحف ، فبعث واحدا الى مكة ، وآخر الى الشام ، وآخر الى اليمن ، وآخر الى البحرين ، وآخر الى البصرة ، واخر الى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحدا[٢٥] .

ان عملية الجمع التي قام بها عثمان كانت استيثاقا بحيث ان المقابلة بين الجمعين كانت متوافقة مئة بالمئة . يقول القرطبي انه بعد الجمع الذي قام به زيد بأمر عثمان وعاونه المؤمنون الحافظون قد روجع على

(٢٢) المصدر السابق ص ١٩ .

(٢٣) نفس المصدر والصفحة .

(٢٤) نفس المصدر والصفحة .

(٢٥) نفس المصدر ص ٣٤ .

مصحف حفصة رضي الله عنها وكانت هي المقياس لصحته ، فبالمقابلة بينهما بعد الجمع تبينت صحتهما بصفة قاطعة لا ريب فيها[٢٦] .

وهكذا أتيح لبعدي الحفظ لكلام الله تعالى أن يلتقيا على صعيد واحد وأن يقرنا معا . فكان المكتوب متواترا بالكتابـــة ومتواترا بالحفظ في الصدور . وما تم هذا ـ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة ـ لكتاب في الوجود غير القرآن[٢٧] .

---

(٢٦) المعجزة الكبرى ص ٤٠ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٣٥ .



الباب الرابع

العربية والبيان

ولما كان أمر الحفاظ على النص قد ثبت بتواتر وعزائم تضمن ديمومته حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فان أمر الاقتراب من النص ومعرفة أسراره وبيانه يبقى بغية المسلم وضالته • فان كان المسلم أعجميا فهو مأمور ان يعبر أسرار القرآن الكريم من خلال اللسان العربي ، وان كان المسلم عربيا فينبغي أن يعرف اعجاز كتاب الله تعالى من حيث البلاغة اللغوية ، ومن حيث البيان العقلي •

ولما كان القرآن الكريم قد شهد للعرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالفحولة اللغوية والجدال العقلي[1] ولما كان العرب قد سجلوا انطباعاتهم عن القرآن الكريم يوم كانت تتنزل منه الآيات فاننا نزداد بصرا بالاعجاز البياني اللغوي من حيث نكون من لسان العرب أشد قربا • وقد لمس العلماء المسلمون هذا الاستشعار الى العربية لدرجة كان يقول معها ابو عمرو بن العلاء : « لعلم العربية هو الدين بعينه »[2] • وكان عمر بن الخطاب يقول : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[3] •

ان مقابلة القرآن الكريم بالنصوص العربية على عهد البعثة النبوية ليبصر الباحث بالرفد الكثير من اللطائف التي خص بها القرآن الكريم والتي كانت وراء اذعان العرب وتسليمهم • بل ان محاولة الوصول الى

---

(١) قال تعالى : (اذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) وقال تعالى (لتنذر به قوما لدا) وقال (أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون) وقال : (وان يقولوا تسمع لقولهم) • وطالع حال قريش في بلاغة المنطق البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢ •

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، مطبوعات دار المأمون ج ١ ص ٥٣ـ٥٤ •

(٣) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٢٤ •

استجلاء صورة العربية قبل الاسلام والوقوف على منحى لهجاتها ليميط اللثام عن أسرار كثيرة من أسرار التدبير الالهي الذي رتب لهذا الدين ان يكون في هذا المناخ وتلك الفترة(٤) وكلما نظر المسلم بعيني المعاصر لنزول القرآن كان أقرب الى استجلاء لطائف كثيرة ذات صلة بالعربية وأساليبها في القول • وكلما نظر المسلم بعيني المعاصر لنزول القرآن المتدبر لآياتـــه كـــان أقرب الى مواطن التنزيـــل • يروي أبو بكر السجستاني عن عمر رضي الله عنه قوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمر عند أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين ، وانه سمر عنده ذات ليلة وانا معه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي وخرجنا معه نمشي ، فاذا رجل قائم يصلي في المسجد ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع قراءته • فلما كدنا ان نعرف الرجل قال : من سره ان يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »(٥) يعني عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه • ويروي الشاعر المسلم محمد اقبال نصيحة والده له حيث كان يقول : اقرأ القرآن كأنه يتنزل عليك •

ان ذلك لما يقرب من مناخ تنزلات الرسالة ويقف المسلم على غايات ومقاصد كثيرة مما يتصل بدلالات العربية وطرائقها •

دور الشعر في الوقوف على أسرار الاعجاز :

لما كان الشعر ديوان العرب وميدان القوم اذا تجاروا في الفصاحة والبيان ، كان محالا ان يعرف كون القرآن الكريم معجزا من جهة الفصاحة الا من عرف الشعر ــ كما يقول الامام عبد القاهر(٦) •

وفي الشعر يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة ، وان من البيان لسحرا »(٧) وقال الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(٤) انظر في تفصيل ذلك كله : مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية تحت باب : الصورة الادبية للقرآن •

(٥) كتاب المصاحف ص ١٣٧ •

(٦) دلائل الاعجاز ص ٦ •

(٧) نفس المصدر ص ١١ •

لحسان : « قل وروح القدس معك »[٨] • وقد استنشد كعب بن مالك وهو راكب ناقته ، فأنشد الأبيات التى أولها :

قضينا من تهامة كل ريث وخيبر ثم أجمحنا السيوفا •
نخيرها ، ولو نطقت لقالت قواطعهن دوسا أو ثقيفا

فأنشد الكلمة كلها • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده لهي أشد عليهم من رشق النبل[٩] • قال ابن سيرين : فنبئت ان دوسا انما أسلمت بكلمة كعب هذه[١٠] •

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب (بن مالك) : « ما نسي ربك ، وماكان ربك نسيا ، شعرا قلته • قال : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أنشده يا أبا بكر • فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة[١١] أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب[١٢]

أما علمه صلى الله عليه وسلم بالشعر فكما روي ان سودة أنشدت « عدي وتيم تبتغي من تحالف » فظنت عائشة وحفصة رضي الله عنهما انها عرضت بهما • وجرى بينهن كلام في هذا المعنى ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليهن فقال : يا ويلكن ! ليس في عديكن ولا تيمكن قيل هذا ، وانما قيل هذا في عدي تميم وتيم تميم • وتمام هذا الشعر :

فحالف ولا والله تهبط تلعة من الارض الا انت للذل عارف
ألا من رأى العبدين أو ذكرا له عدي وتيم تبتغي من تحالف[١٣]

---

(٨) المصدر السابق •
(٩) دلائل الاعجاز ص ١٢ •
(١٠) نفس المصدر والصفحة (الحاشية) •
(١١) سخينة : لقب تنبز به قريش ، لانها كانت تأكل السخينة وهي طعام من دقيق الشعير واللحم ويسخن وذلك في أيام المجاعات • والحديث رواه ابن عساكر باسناد عن جابر نفس المصدر ص ١٣ الحاشية •
(١٢) نفس المصدر ص ١٣ •
(١٣) نفس المصدر ص ١٥ •

وأما ارتياحه صلى الله عليه وسلم للشعر واستحسانه له ، فقد جاء فيه الخبر من وجوه : من ذلك حديث النابغة الجعدي قال :

أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قولي :

بلغنا السماء مجدنـا وجدودنا   وانا لنرجو فوق ذلـك مظهرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اين المظهر يا أبا ليلى ؟

فقلت : الجنة يا رسول الله ۰ قال : أجل ان شاء الله ۰ ثم قال : أنشدني فأنشدته من قولي :

ولا خير في حلم اذا لم تكن له   بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له   حليم اذا ما اورد الأمر أصدرا

فقال صلى الله عليه وسلم : أجدت ، لا يفضض الله فاك[١٤] ۰

وعن عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول : أبياتك فأقول :

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه   يوما ، فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وان من   أثنى عليك بما فعلت فقد جزى[١٥]

وقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) التي أنشدها بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم واستحسانه لأبياتها حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير الى الحلق ان اسمعوا[١٦] دليل آخر يضاف الى علم الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر واستحسانه له ۰

أما قوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) فليس المنع في ذلك منع تنزيه وكراهة ـ كما يقول الامام عبد القاهر ـ بل سبيل الوزن في منعه عليه السلام اياه سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا

---

(١٤) المصدر السابق ص ١٦ ۰

(١٥) دلائل الاعجاز ص ١٤ والشعر لزهير بن الحباب ۰

(١٦) نفس المصدر ص ١٧ وطبقات فحول الشعراء ج ١ ص ١٠٣ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون من اصحابه مكان المائدة من القوم يتحلقون حلقة دون حلقة فيلتفت الى هؤلاء والى هؤلاء ۰

يكتب في أن لم يكن المنع من أجل كراهة في الخط بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر ، والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أكعم للجاحد ، وأقمع للمعاند ، وارد لطالب الشبهة[١٧] • وقد استثنى رب العالمين من الشعراء المؤمنين ، قال عز من قائل : (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) الشعراء : ٢٢٧ •

وقد تمثل الخليفة عمر رضي الله عنه بشعر عمارة بن الوليد[١٨] •

أسرك لما صرع القوم نشوة   خروجي منها سالما غير غارم
بريئا كأني قبل لم أك منهم   وليس الخداع مرتضى في التنادم

وكان الحسن البصري رحمه الله يتمثل في مواعظه بالأبيات من الشعر • وكان من أوجهها عنده :

اليوم عندك دلها وحديثها   وغدا لغيرك كفها والمعصم[١٩]

(يقصد الدنيا) •

---

(١٧) دلائل الاعجاز ص ٢٠ وانظر صبح الاعشى ج ١ ص ٥٩ •
(١٨) نفس المصدر ص ٩ •
(١٩) نفس المصدر والصفحة •

الباب الخامس

أساليب البيان

اذا كانت أساليب البيان في الكثرة الكاثرة من حيث تصحيح الأقسام ، وحسن الترتيب والنظام ، والابداع في التشبيه والتمثيل ، والاجمال ثم التفصيل ، ووضع الفصل والوصل موضعهما ، وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما[1] ، فان اول ذلك وأولاه : القول على (التشبيه والتمثيل والاستعارة) ، فان هذه – كما يقول الامام عبد القاهر – « أصول كبيرة كان جل محاسن الكلام – ان لم نقل كلها – متفرعة عنها ، وراجعة اليها · وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها »[2] ·

تنوير :

ما من امرىء في هذا الكون ، حباه الله عقلا راجحا ، الا وله تصور عام يحيط بالكون والاحياء ، ويربط المخلوقات بعضها ببعض · وكلما ازداد المرء بالأشياء خبرا ، وكلما أرهف الحس ، وحدد البصر ، ليجدن الصورة اكثر اشراقا ، وأوضح رؤية ·

وهكذا تنعكس الحقيقة الكونية على نفوس الناس المتباينة صورا شتى ، بعضها المضيء ، وبعضها المعتم ، بعضها المجزأ ، وبعضها المتكامل · والتكامل هذا ليس وليد العقل وحده ، بل يسعى به العقل والقلب والشعور والاحساس · وفي هذه الميزة وحدها يفضل الانسان سائر الحيوان ، ويرتقي على العجماوات ، بل في هذه الميزة ايضا يفضل الانسان العاقل البالغ غيره من بني الانسان ممن حرم هذه النعوت والصفات · المرء يسمع ويرى ويحس ويتأمل ، ثم يأتي العقل الواعي ليشد الشيء الى شبهه ، والمتجانس الى رفقه ، ويسلك ذلك كله في نظام متسق ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠ والبيان والتبيين ج ١ ص ٧٣ ·

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٦ ·

تنزاح من أمامه التناقضات ، وتحل معه الطلاسم والرموز · وبعبارة أخرى نقول : ان العقل يوحد بين المدركات الانطباعات ، ويجعل منها صورة واحدة كلية تحتوي الاشياء والعلاقات ولا تذيبها ، بعكس الحيوان او انطفل الذي يسمع ويرى ويحس ويتألم ، لكنه يقف على عتبة الجزئيات ، ولا يتجاوزها ، ذلك ان ملكة العقل التي تقيم العلاقات ، وتبني الوشائج والصلات ، وتلمح أوجه الشبه ، وتصنف وتنظم ، تكاد تكون متغيبة · لذا فان العقل الانساني الناضج وحده هو الذي يقدر على بناء نظام متكامل من الرؤية تحيط بالعوالم والحياة ، وتدرك المجرد والمحسوس ، وتنطلق الى العلة من المعلول · وهذا العقل وحده القادر على النفاذ من عالمنا الصغير الى عوالم أوسع وأرحب · ولعل ذلك وحده يفسر تكليف الانسان لأمانة المسؤولية ، ووضعه أمام الجزاء والثواب والعقاب ، فهو وحده الذي يسلسل العواقب ، ويعرف النتائج ، ويتبين الرؤية من مكان بعيد ، ولا كذلك الأعجم او الطفل أو المجنون* ·

مناهج البحث :

وقد تنوعت مناهج التفكير ووسائل البحث عن الحقيقة الأزلية التي ينطوي تحتها ناموس العالم ، فنزل سقراط الى الشارع يسأل الحوذي والحمال ، ويتلمس المعرفة في الفطرة الانسانية وأسرارها ، موقنا ان النفس ذاتها قبس من السر العظيم الذي به تتسق الحياة ، وفزع أفلاطون الى عالم سحري يموج بالغرائب والعجائب : عالم علوي هو أصل ، وما دونه فهو ظل خافت ، وتصبح محاكاة الاشياء في منطقه ظل ظل وقد رأى هذا ان العمر قصير ، ويمضي الأفراد في هذه الحياة دون ان تتحقق رغباتهم ، واذاً فلا بد من حياة أخرى يرشف منها المرء سعادة ولا يكاد يرتوي · واذا كانت حياتنا تمضي بلا ثواب أو عقاب عادلين ، فلا بد والحالة هذه من أن يعقب ذلك حياة يصفى فيها الحساب ، وتعاد الأمور فيها الى أنصبتها الصحيحة · ونزل أرسطو الساحة ، وكان من رأيه أن الفلاسفة لمسوا بعض الحقيقة ، لكنهم ضلوا الاداة والسبيل ، فأفلاطون

★ من أراد التوسع في هذه التفصيلات فليراجع كتابنا : الفكر الاسلامي ·

يفسر الكائنات بمثل قائمة بذاتها مستغنية عما سواها فضل صاحبه الطريق ، لأن تفسير الشيء لا يكون بشيء خارج عنه ، ولأن المثل هي أجناس كلية ، ولا وجود لها خارج أذهاننا اذ لا وجود في الواقـــع إلا للجزئيات · ولم يهتد فيثاغورس الى تفسير الكائنات المادية عن طريق الخصائص الرياضية التي هي في الواقع مفاهيم ذهنية مجردة ·

ومن لدن سقراط وأفلاطون وأرسطو والفلاسفة يجربون ويفترضون ويشرحون ويبنون ، لكن جهودهم ما تكاد تبنى حتى تنقض ، وما يكاد أحدهم يجد تفسيرا حتى يجد الآخر له نقضا وهكذا سطرت صفحات وامتلأت مجلدات وقامت بديهيات وافتراضات ثم مقدمات وأبنية منطقية وأقيسة لم تثبت الى قرار ، ولم تصمد للزعازع والأفكار · المرء يغير رأيه ، وينسلخ من افتراضاته ، والثاني يبطل الاول ، والمعركة لها أول ولا آخر لها ، ثم أنى لنا بالاقتناع والتحقيق وأقيسة الفلسفة لا تذل للتجربة كما ذل العلم ؟ ! ان محاولات العقل المجرد قد ارتدت كلها حسيرة كليلة الطرف ، وبقيت زمر الفلاسفة والعقلانيين تحت قبة السماء تقذف بالغيب وترجم بالظنون من مكان بعيد ، فلا هي أبصرت ، ولا هي درت أو وعت ما رأت · ومات أغلب هؤلاء في حيرة الشك وعمى الضلالة ، وتلبيس التخليط ، وقل أن تجد أحدا منهم أصر على ما فعل الا وتبدت له الحياة عقما وجدبا ، والا تراءت له خواء وجفافا ، والا حدثته النفس بالتردي والانتحار* ·

ومن جهة أخرى كان هناك أفراد تواصلوا بالحق ، وتطهروا مـــن الدنس والبوائق ، ونزهوا الله عن كل نقيصة ، وتاقوا بأرواحهـــم الى

★ في سر الفصاحة أبيات أوردها الخفاجي تحكي حال هؤلاء الفلاسفة ·

وفي الفلاسفـة الماضـين معتبـــر ... فطالما قصدوا فيهـــا وما عسفوا
وقد أتوك بمين مـــن حديثهـــم ... يكاد يضحك منه الحبر والصحـف
ظـن بعيـــد واقـــوال ملفقـــة ... تخفى على الغمر أحيانا وتنكشف
الامر أكبر مـن فكر يحيط بـــه ... والعمر أقصر أن يلقـى لـه طرف
ومـــا رضيت بعقلي في جدالهـــم ... ولا توهمت الا غير مـــا وصفـوا!

الملأ الأعلى ، وتقدموا الى ربهم بقلوب مؤمنة ، ونفوس خاشعة ، وأصوات خافتة ، وتواضع جم ، ففاضت عليهم اشراقات الذات العلية ، وذاقوا حلاوة الطاعات ، وظفروا ونالوا ، واطمأنوا الى النوال · أتتهم التجليات وحيا ، او من وراء حجاب ، فمنهم من كلم الله ومنهم من أتته الملائكة قبيلا ، ومنهم من ألقيت اليه الألواح بلغته ، ومدى استعداده ، ومنهم من لقي صحفا وأسفارا ، ومنهم من رأى الرؤيا ، فاستوت في التحقيق والتصديق كفلق الاصباح ·

وقد هدي هؤلاء جميعا الى القول الطيب والعمل المثمر ، ودعوا الى مكارم الأخلاق ، وتنادوا بنصب العدل ، واقامة الموازين ، ما ند أحدهم عن ذلك ، ولا شذ ، ولاخرج مغاضبا او مغالطا ، انما هي الطمأنينـــة والاذعان والتسليم ، حتى لنجدن امرءا أشربت روحه بتعاليم ربه لا هو بالنبي ولا بالرسول ، وهو الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول بلهجة المطمئن الواثق : لو ضاع مني عقال بعير ما نشدته الا في كتاب الله · هذه الرؤية الكلية الواضحة التي تنزاح من أمامها الاوهام ، وتختفي وراء شمسها التناقضات والمسافات والأبعاد ، والى مثل هذا أشار رب العزة في :

محكم الكتاب – وهو أعلم – حين قال (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ٧ : ٣٠ ·

ولما كان عالم الله غير عالمنا قال تعالى (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) الحج : ٤٧ ولما كان الله تعالى هو وحده الذي يجوز الأبعاد الزمانية والمكانية ويحد الزمان والمكان ولما كانت اللغة – أي لغة – هي انعكاس المدركات والتعبير عنها والتعامل معها ، استلزم أن يكون هناك فجوة بين اللغة من حيث قصورها عن أن تلم بالحقائق العلوية التي لم تول نفسها للمدركات وهو ما عبر عنه الامام ابو حامد الغزالي حين ذكر التصوف ومقاماته :

قد كان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ان اللغة هي مجموعة من المدركات الحسية والمعنوية المشتقة منها فكيف ثمة يحيط المدرك بمالا يدرك . ثم أن العقل الانساني يعلم القليل من علم الله والكثير الكثير سيبقى محجوبا بعوامل كثيرة* . قال تعالى : (وماأوتيتم من العلم الا قليلا) وقال تعالى : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) الكهف : ١٠٩ وقال عز من قائل : (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله) لقمان : ٢٧ .

ازاء ذلك كله شاء الله تعالى ان يقرب الى الناس جميعا — عربهم وعجمهم ، عوامهم وخواصهم ، حاضرهم ومقبلهم — من خلال ضرب الأمثال وسوق القصص وذكر الأخبار واستخدام التشبيه والتمثيل والايجاز . ومن ثم فان المقاصد العلوية تنعكس على نفوس الناس بقدر صفائهم واستعدادهم ومدركاتهم . وهكذا يكون الاقتراب من النص القرآني مستويات ويظل التفاوت قائما حتى تقوم الساعة وتنجلي الأمور على حقيقتها وبكلياتها . قال تعالى : (ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)سورة ق ٢٠ـ٢٢ يقول الامام ابو حامد الغزالي في احياء علوم الدين : «انما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علمهم ، وصفاء قلوبهم ، وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد في الترقي من درجة الى درجة أعلى منها . فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما ، فأسرار كلمة الله عز وجل لا نهاية لها »(٣) وينقل ضياء الدين بن الأثير قول الغزالي في كتابه الموسوم بالجواهر والاربعين الى اشارته « أن في القرآن اشارات وايماءات لا تنكشف الا بعد الموت »(٤) .

★ يقول مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية : ان عبقرية الانسان تحمل بالضرورة طابع الارض حيث يخضع كل شيء لقانون المكان والزمان . بينما يتخطى القرآن دائما هذا القانون . وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الابعاد الضيفة للعبقرية الانسانية . ص ١٨٢ .

(٣) احياء علوم الدين ج ١ ص ٢٦٣ ، المعجزة الكبرى ص ٦٠٧ .

(٤) المثل السائر ج ٣ ص ٦٣ .

ان التشبيه والمجاز في القرآن الكريم قد استحضر الحقائق والأسرار العلوية من خلال أقصى درجات الاشراق والتوهج ووفرة الاحتمالات وقوة التكبير ودرجة الاحساس ٠ وبقدر ما يكونه المرء من التهاب الطبع وحدة القريحة بقدر ما يتغلغل في الأسرار ، وبقدر ما تكون له ألمعية يقوى معها على الغامض ويصل بها الى الخفي[٥] ٠

ولما كان الانسان هو مدار الامر ومناط الفهم وكان كل ما في الوجود قد سخر في خدمته وتحت هيمنته وسطوته ، قال تعالى : (ألم تر أن الله سخر لكم ما فيالسموات وما في الارض) ، فان درجات التقريب والايضاح وضرب الامثال وتصريف المعاني انما كان الانسان من خلال منافذ الفهم فيه والاستيعاب هو المدار والمقصد ٠ وسنتبين في منهج التشبيه القرآني والمجاز القرآني كيف وظفت عوالم الانسان ومناخاته ومدركاته في النفاذ الى المقاصد الالهية حتى ليستطيع المسلم المتذوق لحلاوة الطاعات الراغب في الله أن ينفذ من عالمه الصغير من خلال الهدى الى وجوه الشبه والايماءات بحيث يدرك مقاصد الله تعالى في كل أمور دنياه* ٠ يقول تعالى في حديث قدسي : ما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ٠

التشبيه :

وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى[٦] ٠ ومن أدواته الكاف ، وكأن ، ومثل ، وما في معناها[٧] ٠ ويجري التشبيه في صور كثيرة تفهم من طبيعة السياق ، من ذلك : المبتدأ والخبر كقول النبي صلى الله عليه

---

(٥) انظر دلائل الاعجاز ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ ٠

★ من ذلك قوله تعالى : (ولله غيب السموات والارض وما أمر الساعة الا كلمح البصر) النحل : ٧٧ ٠ ترى أليس هناك من حركة أسرع من لمح البصر ؟ الواقع أن هناك مالا نهاية من تجزئة اللمحة لكن الله تعالى قرب الى الانسان من خلال بصره لانه مدار هذا الامر أعني الافهام والتفهيم او البيان والتبيين) ٠

(٦) القزويني ، تلخيص المفتاح ص ٢٢٤ الخفاجي سر الفصاحة ص ٢٩٠ وانظر :
The Lively Rhetoric, P. 235.

(٧) تلخيص المفتاح ص ٢٤٢ ٠

وسلم : « الكمأة جدري الأرض »[٨] والمصدر المبين للنوع نحو : أقدم اقدام الأسد[٩] . والمضاف والمضاف اليه ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصائد السنتهم ؟ » كأنه قال : كلام الالسنة كحصائد المناجل[١٠] أو التناسب بواسطة التمليح او التهكم كأن يقال للجبان : ما أشبهه بالأسد[١١] ! .

وواضح ان للتشبيه طرفين أو ركنين هما المشبه والمشبه به . وقد يأتي التشبيه مظهر الأداة أو يأتي مضمرها يجمعهما بيت البحتري :

ذات حسن لـــو استزادت مـــن
الحسن اليـــه لما أصابت مزيـــدا
فهي كالشمس بهجة والقضيب اللدن
قدا والريـــم طرفـــا وجيـــدا[١٢]

ويرى الخفاجي ان التشبيه بغير حرف على ظاهر المعنى يستحسن لما فيه من الايجاز[١٣] وذلك كمثل قول أبي القاسم الزاهي :

سفرن بدوراً وانتقبن أهلـــة ومسن غصونـــا والتفتن جآذرا

وقول الوأواء الدمشقي :

أسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العناب بالبرد[١٤]

وفي الحديث النبوي الشريف قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن العزل فقال هو الوأد الخفي[١٥] وأعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة باعتبار أركانه كلها او بعضها هو حذف وجهه وأداته[١٦] وهو التشبيه البليغ .

---

(٨) المثل السائر ج ٢ ص ١١٧ .
(٩) نفس المصدر ص ١٢٦ .
(١٠) نفس المصدر ص ١١٨ .
(١١) تلخيص المفتاح ص ٢٤١ .
(١٢) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦٨ .
(١٣) سر الفصاحة ص ٢٩٠ .
(١٤) انظر سر الفصاحة ص ١٣٥ وينسب البيت الاول لديك الجن ، ص ٢٩٨ .
(١٥) المثل السائر ج ٢ ص ١٥١ .
(١٦) تلخيص المفتاح ص ٢٥٩ .

في قولنا : زيد كالأسد في الشجاعة ـ واضح ان زيدا والأسد اشتركا في صفة معينة وهي الشجاعة والشجاعة هي سمة بارزة في الأسد ، ولا شك ان هذا البروز سيكون له انعكاس ايجابي على زيد · ولسنا معنيين بالبحث عن وجه التقاء بين زيد وبين الأسد بأكثر مما يريده النص بحرفيته والا نكون كمن حول الامر عن مقصده ورام غير الذي قدم · بل ان محاولة تحميل النص اكثر مما يحمل ليعطي زيداً المزيد من صفة الحيوانية التي هي هنا الى الذم والتعريض أقرب منها الى الاطراء والمديح · وما نظن ان أحدا يحب أن يشبه الممدوح بان له ذيلا كالأسد او ان يمشي على أربع أو غير ذلك من فضول المجانبة للمقصود[17] ·

ان الشجاعة هي وجه الشبه بين الاثنين وفيما سوى ذلك يبقى لكل خصوصيته وذاتيته ·

والتشبيه يأتي على ضربين :

١ ـ أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه الى تأول ·

٢ ـ ان يكون الشبه محصلا بضرب من التأول ·

فمثال الاول : تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو ان يشبه الشيء اذا استدار بالكرة في وجه ، وبالحلقة في وجه آخر · وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخدود بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار · أو جمع الصورة واللون معا كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور · وكذلك التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه القد اللطيف بالغصن · ويدخل في الهيئة حال الحركات في اجسامها كتشبيه من تأخذه الاريحية فيهتز بالغصن تحركه ريح ونحو ذلك · وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس[18] نحو تشبيه صوت بعض الأشياء بصوت غيره كتشبيه أطيط الرحل بأصوات الفراريج وكتشبيه بعض الفواكه

(١٧) انظر في مناقشة ذلك المثل السائر ج ٣ ص ٥٢ ·

(١٨) المدرك هو أو مادته باحدى الحواس الخمس الظاهرة : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ·

الحلوة بالعسل والسكر وتشبيه اللين الناعم بالخز . وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة ، والأخلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بهما . فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأول ولا يفتقر اليه في تحصيله(١٩) .

ومثال الثاني وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأول كقولك : « هذه حجة كالشمس في الظهور » وقد شبهت الحجة بالشمس من حيث ظهورها . وهذا التشبيه ــ كما يقول الامام عبد القاهر ــ لا يتم الا بتأول ، وذلك ان تقول : حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الاجسام ان لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها . ثم تقول ان الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول ، فاذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما ادعى من الحكم : قيل هذا ظاهر كالشمس(٢٠) .

ثم ان ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتا شديدا . فمنــــه ما يقرب مأخذه ــ كما يقول الامام عبد القاهر ــ ومنه ما يحتاج فيه الى قدر من التأول ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه الى فضل روية ولطف فكرة . فمما يشبه الاول قولهم في صفة الكلام : ألفاظه كالماء في السلاسة وكالنسيم في الرقة وكالعسل في الحلاوة . يريدون ان اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ولا يصعب الوقوف عليه وليس هو بغريب وحشي يستكره لكونه غير مألوف او ليس في حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان ، فصارت لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق والنسيم الذي يسري في البدن ويوجد في الصدر انشراحا ويفيد الناس نشاطا وكالعسل الذي يلذ طعمه وتهش النفس له ويميل الطبع اليه . فهذا كله ــ كما يقول الامام عبد القاهر ــ تأول ورد شيء الى شيء بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلا في حقيقة التأول(٢١) .

---

(١٩) انظر : أسرار البلاغة ص ٨٢ وانظر : تلخيص المفتاح ص ٢٤٠ .

(٢٠) نفس المصدر ص ٨٣ وانظر : تلخيص المفتاح ص ٢٤١ .

(٢١) انظر : أسرار البلاغة ص ٨٤ .

وأما ما تقوى فيه الحاجة الى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فنحو قول كعب الأشقري وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيه وذكر مكانهم من الفضل والبأس فسأله : فأيهم كان أنجد ؟ قال : « كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » . فهذا كما ترى – كما يقول الامام عبد القاهر – ظاهر الأمر في فقره الى فضل الرفق به والنظر . ألا ترى انه لا يفهمه حق فهمه الا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة . وليس كذلك تشبيه الحجة بالشمس فانه كالمشترك البين الاشتراك حتى يستوي في فهمه اللبيب اليقظ والمضعوف المغفل . فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوله هم كالحلقة فلا تراه الا في الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء[٢٢] .

ومثل ذلك البيت :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونه زرق كأنياب أغوال

وأنياب الاغوال مما لا يدركها الحس لعدم تحققها وهي لذلك مبنية على قوة التوهم[٢٣] .

أغراض التشبيه :

التشبيه هو فتح باب على المجهول من خلال المعلوم ، اذ ان أنس النفوس موقوف – كما يقول الامام عبد القاهر – على ان تخرجها من خفي الى جلي ، وان تردها في الشيء تعلمها اياه الى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو ان تنقلها عن العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا « ليس الخبر كالمعاينة » ولا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة[٢٤] . ان

(٢٢) انظر نفس المصدر والصفحة . وانظر : أبو زيد البلخي ، البدء والتاريخ ج ١ ص ٢٣ .
(٢٣) تلخيص المفتاح ص ٢٢٨ .
(٢٤) أسرار البلاغة ص ١٠٨ وانظر : سر الفصاحة ص ٢٩٠ .

المعاني شبيهة – كما يقول ضياء الدين بن الأثير – بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك اذا اوردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها ، وتقلبها ظهرا لبطن ، وتنظر الى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها ، وعند ذلك تخرج بك الفكرة الى معلوم ، فكذلك اذا ورد عليك معنى من المعاني ، ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية(٢٥) .

واذن فالتشبيه معادلة جبرية تتكون من مجهول او أكثر ومن معلوم او اكثر من الدرجة الاولى او الثانية او الثالثة حسب تعقيد الصورة وكثرة المتغيرات . وحتى تكون الصورة أقرب الى الواقع فانني أميل الى استخدام التعبير الرياضي (=) يساوي على وجه التقريب المشبه س = المشبه به (معلوم) . ولو طبقنا هذه المعادلة الجبرية التي سبق اليها ضياء بن الأثير على منهج القرآن الكريم في التشبيه وعلى المنهج النبوي الشريف سنجد اتساقا في التفسير ، واقتصاداً في التعبير ، ولطائف ومحاسن . قول الله عز وجل : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) سورة النور : ٣٩ .

السراب ظاهرة فيزيائية تتأتى من انكسار أشعة الشمس المرتدة عن الفلوات والكثبان الرملية عبر الطبقات الهوائية المختلفة الكثافة بسبب من تفاوت درجات سخونتها حسب قربها من الارض او بعدها عنها ، اذ المعلوم ان أشعة الشمس تخترق طبقات الهواء ولا تسخنها وهذا ما يفسر برودة الهواء في المناطق العالية اكثر من سواها . وعندما تصل الأشعة الى الارض تسخنها وتبدأ هذه السخونة تلامس الطبقات الهوائية الأدنى فالأدنى ، وعند ذلك فان انعكاس الأشعة عبر التفاوت الكثافي سيجمع الأشعة في بؤرة واحدة تنعكس على مكان معين فتبدو ظاهرة السراب .

واذا كان السراب هو خدن المناطق الصحراوية فان المسلم يزداد يقينا اذا كان أقرب الى الف هذا المعلوم والوقوف على أسراره . وهنا

---

(٢٥) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦ .

يبدو جليا تطابق كتاب الله تعالى المسطور مع كتابه المنظور وهو هذا الكون المفتوح بكل ما فيه من غنى في البيئة وأحوالها • واذا كان المسلم ينتمي الى بيئة صحراوية فلا يعفيه من الأمر أن لا يسير في الأرض ويزداد فقها في دينه من خلال عبور القناطر التي تفتح على المجاهيل أبوابا من المعلومات التي ينبغي ان يحسن الوقوف عليها من وجوهها الكثيرة • وهذا ما يفسر ورود كلمة أفلم يسيروا في الارض وكلمة سيروا في الارض اكثر من اثنتي عشرة مرة في كتاب الله تعالى •

ثم هل السراب ظاهرة تتكرر في كل زمان ؟ الجواب حتما بالايجاب واذاً فسيكون لهذا المعلوم قوة التجربة العلمية من حيث التثبت منها واعادتها • وهكذا يستطيع المسلم في كل زمان ان يزداد في المعلوم تحديقا وتحديدا ليكون الى النص قريبا حبيبا • وهكذا يلوح المعلوم لكل فرد ولكل بيئة على نحو قد لا يكون ذاته لدى بيئات مغايرة وأناس مغايرين • أو جائز أن تقع عيونهم على أوجه شبه في المعلوم تتفاوت من حيث التكامل او درجة التوهج او الوقوف على الغايات القريبة والبعيدة • وواضح انه كلما ازدادت المعطيات العلمية والحضارية والبيئية أتيح للنص ان يبدو اكثر اشراقا وتألقا في النفوس • أما الاشراق والتألق فهو سمة القرآن الكريم كله ولكن الاشراق والتألق هنا هو ما يتبدى للانسان وهو مدار الامر ومناط القصد كما سبق أن قدمنا •

وهكذا يبدو القرآن الكريم منجما لتعدد الايحاءات وغناها وسعة جوانبها وتكثر خيوطها وكلما عاود الانسان هذا المنجم أمده بالجديد الجديد • وهو الوصف الذي قاله في القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تفنى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد »[٢٦] •

---

(٢٦) دلائل الاعجاز ص ٢٥٣ ويخلق بمعنى يبلى من طول العهد والرد : الترديد أي أنه يبقى جديدا مهما كرره التالي وردده وهو بعض الحديث رواه الترمذي باسناد عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة وفيه : ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الاتقياء : المعجزة الكبرى ص ١٥ •

وواضح أن الأسرار الالهية والمقاصد العلوية كانت من خلال البيان تنعقد منها الامور في آيات كونية وبيئية يشاهدها الناس ويتعاملون معها ويحددون فيها البصر ويرهفون اليها السمع · وان الوصول الى هذه المقاصد هو المرور عبر البيئة الارضية ومحتوياتها وهي ذات البيئة في كل زمان ومكان · ولعل هذا يوميء الى ان التصوف الاسلامي ينبغي ان يكون مرورا من ذات البيئة الانسانية ومعاناتها والتعامل معها ، وليس بهجران الحياة وملابساتها ·

وهكذا قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد)[٢٧] ابراهيم : ١٨ ·

س	الكاف
(أعمال الكافرين) والتوهم بالخير	= رمادا اشتدت به الريح في يوم عاصف
المشبه	المشبه به (المعلوم)

هل الرماد يشتد به الريح في يوم عاصف قصر على زمان دون آخر ؟ ان المشبه به لهو من التكرر بحيث يبقى ما بقيت الحياة الانسانية على الارض وبذلك فان هذا المعلوم يملك قوة ما للتجربة العلمية من اعادة واثبات ، ناهيك عن قوة الاحساس بها ·

ان ارتفاع عمود من الزئبق على سطح البحر هو ٧٦ سم سواء أكان ذلك على البحر الابيض المتوسط أم في نيويورك ، في القرن التاسع عشر أم في القرن الحادي والعشرين · ومن كان في شك من ذلك فيستطيع اعادة التجربة والتيقن من الأمر ·

واذا كانت الآية السابقة قد انعقدت منها المعادلة في جو صحراوي يتشكل في اي زمان وفي أي بيئة فان الآية هذه قد اعادت تثبيت ذات

(٢٧) ينظر في تفسيرها بيانا : كتاب الصناعتين ص ٢٤٠ وسر الفصاحة ص ٢٩١ والمعجزة الكبرى ص ٢٦٤ ·

الدلالة من خلال مشهد جديد وتصور جديد . واذا كان منظر السراب مما يعز وجوده في غير الصحاري والمناطق الحارة فان منظر الرماد والريح الشديد لهو ألصق بالمناطق الباردة والمناطق الثلجية والقطبية . وهكذا تأتي الآيات تتضافر لتقدم للعقل الانساني من خلال التنوع والتفاوت غنى في الايحاءات والمقاصد والتعبير . وهذا يغري الشادي وراء الأسرار الاعجازية ان يسعى الى تفسير القرآن الكريم بالقرآن فهو نظام متكامل يرتبط ببعضه ارتباطا عضويا وثيقا . وان بدا احيانا من لبس أو غموض من بين مقصد وآخر - كما اختلف الناس بين القدرية والجبرية مثلا - فان ذلك ناشيء عن طبيعتنا القاصرة التي تعجز حتما عن عبور الأسرار جميعا والاحاطة بها من كلياتها . ولا جرم ، فان سمعنا محدود ضمن بعد لا نجاوزه وبصرنا محدود ضمن رؤية معينة(٢٨) وكذلك مبلغنا من العلم والتفكير . وليتفكر أحدنا أن لو أتيح للناس ان يكونوا بعيون اكثر تكبيرا بمئات المرات او دون ذلك بكثير أو أن يكونوا بقدرات على التنصت اكثر هولا ، هل تظل نظرتنا للأمور ذات النظرة ويبقى التصور ذات التصور ؟ وهو الأمر عبر عنه رب العالمين في قوله : (هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) آل عمران : ٧ .

جاء في تفسير محيي الدين بن عربي للآية الكريمة ان الحق الالهي كل متكامل وان هذا ينعكس على النفوس المتفاوتة في الرغبة والطاعة والاستعداد ودرجة الصفاء انعكاسا متفاوتا فمنهم من يرى جزءا ومنهم من يرى اكبر ومنهم دون ذلك وهكذا يتكثر التفاوت بتفاوت الصفاء والاستعداد كانعكاس أشعة الشمس الواحدة على المرايا المتعددة . فبقدر ما تكون هذه من اللمعان والصقل بقدر ما يرى شعاعها صفاء ونفاذا . من هنا

---

(٢٨) انظر في أمثلة ذلك : البدء والتاريخ ج ١ ص ٢٢ .

فان درجات الاستعداد القاصرة تظن ان في الرؤية تناقضا أو عدم اتساق بينما التناقض وعدم الاتساق هما نتاج عدم الاستيعاب ونفاذ الفهم وقصور الأداة . وهكذا تشتبه على هؤلاء الحقائق ويذهبون فيها معاجزين بينما المؤمنون تتوحد فيهم الأبعاد وتندغم لديهم الأمور وتبدو وحدة الرؤيـــة الكلية . فان استطاعوا أن يحلوا مغاليقها فبها ونعمت ، وان لم يستطيعوا وهو الأصح ـ لعجز قدرات الانسان وأدواته ، فانهم يسلمون أن ثمة لا تناقض وانما هو تناغم وانسجام ويرجئون ما استغلق عليهم من فهم الى وقت يرجونه ، أفي الدنيا كان ذلك أم وقت لقاء وجهه الكريم . ان الموحدين كما يقول ابو زيد البلخي يعرفون ربهم ولا يعلمونه(٢٩) بل ان عدم الاختلاف في القرآن الكريم لهو في الأسرار المعجزة التي تظل تضع القدرات البشرية في دوائر العجز والتقصير . قال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) النساء : ٨٢ . وفي وقت تفيض فيه الدنيا كل عام بمؤلفات ضافية من وحي القرآن الكريم ومن علومه وتحت رايته وفي تقصي أسراره وارتياد آفاقه ، وفي وقت نجد أن المكتبة القرآنية هي الأخصب والأغنى في كل ما أوحاه أي كتاب من دراسات وبحوث ، فان أعمال عمالقة كبار في التاريخ الانساني كسبت أنصارا كثرا ثم لما أن تقدم بها الزمان شاخت وهرمت الا كتاب الله تعالى فانه يزداد مع كل نضج علمي أو بعد زماني شبابا وتألقا ورواء . ويكفي ان نشير الى فضل أرسطو طاليس على الدراسات الفلسفية والأدبية والبلاغية والجمالية وأثره في الشرق والغرب . ومع ذلك فقد كان أرسطو طاليس يبني مملكته العلية على فرضيات وبديهيات هي الآن خاوية على عروشها أمام طلبة المدارس الابتدائية . كان ارسطو يرد الوجود الى عناصر اربعة او اسطقسات أربعة هي الماء والهواء والنار والتراب . وجاء العالم الانجليزي كافندش ليثبت بالتحليل الكهربائي ان الماء مركب من الهيدروجين والاوكسجين بنسبـــة ٢ : ١ . وتبـين الهـــواء نيتروجـــين وأوكسجـين وثانـــي أكسيد الكربون وأعدادا لا حصر لها من العناصر الغازيــة والمركبات

---

(٢٩) البدء والتاريخ ج ١ ص ٢٢ . ويقول ابو زيد البلخي ان العلم الاحاطة بذات الشيء عينه وحده . والمعرفة ادراك ذاته وثباته وان لم يدرك وحده وحقيقته . ان الموحدين يعرفون ربهم ولا يعلمونه .

الغازية . وبان ان النار طاقة وان التراب خليط من عناصر ومركبات كثيرة . فهل زاد علم أرسطو مع تقادم الزمن تماسكا أم قد بان فيه اختلاف كثير ؟

وذهب أرسطو الى أن الكواكب هي حية ولها النفوس ناطقة ، وقد عطف على ذلك العالم الطبيب الفيلسوف الرئيس ابن سينا فقال ان الكواكب هي العقول الاولى في نظامه العشري في نظرية الفيوض . وها قد جاء العلم الحديث ليثبت عمليا مذ وطئت قدما أرمسترنغ أرض القمر أن الكواكب ليست الا أرضا لا تملك لنفسها ارادة وانها دون الارض حياة واعتبارا . وقد اعتذر البارون كارل ديفو عن ابن سينا بأن معطيات عصره العلمية هي التي قد خذلته .

وسواء أسقط أرسطو وابن سينا من تلقاء أنفسهم أم من خلال معطيات عصرهم فان امرا واحدا لا نعدوه وهو تقرير ان العبقرية الانسانية هي في دائرة الاختلاف والعجز مهما اوتيت من مدد فكري وحضاري . ولا نعني بالاختلاف ان يكون ثمة تناقض في البناء الواحد ولكن الاختلاف يعني ان يكون مخالفة للحق وواقع الأمر . بقي أن نشير الى أن أبا زيد البلخي (ت٣٢٠هـ) في بداية القرن الرابع الهجري وقبل ألف عام من ارتياد الفضاء والنزول على الكواكب قد أسقط دعوى أرسطو في نظريته وسخر منها(٣٠) ، أو ليس قد عرف ذلك من خلال الصفاء الذهني دون أن يعلمه – على حد تعبيراته – .

وكأعمال أرسطو وابن سينا كانت هندسة اقليدس قد بلغت حدا في التناسب الفني والتسلسل المنطقي تطاول قرونا كثيرة . وبدا هذا الصرح الممرد يميل ويهوي أمام تشكيك العلماء في البديهيات التي قد اعتمدها اقليدس وبخاصة بعد اكتشاف الهندسة الفراغية . وما بني على فاسد فهو فاسد ، عقليا كان أم غير ذلك . وهذا المتنبي فحل الشعراء العرب والذي تناول ديوانه بالشرح والتفسير والتعليق اكثر من ثلاثمائة

---

(٣٠) البدء والتاريخ ج ٢ ص ٢٠ .

مؤلف يسقط في المواضع المختلفة ويعتريه الكلال والوهن ويسقط من ديوانه الكثير الكثير وفيه من الهنات والغمزات والسقطات كثير • حتى ماركس أبو المذهب المادي في تفسير التاريخ والذي يعتبره العالم المناوىء المتراس الأخير لصد العالم الاسلامي بل وغزوه - وفي شبابنا وأقلياتنا سماعون لهم - مات وفي نفسه شيء من حسد محمد صلى الله عليه وسلم • بل أكثر من ذلك فان وليم والمان William Wolman المحلل الاقتصادي في مجلة Business Week يقول : ان منافس ماركس الوحيد هو محمد[٣١] (صلى الله عليه وسلم) • ويكفي شاهدا على ان ماركس سقط أخيرا من خلال الردة في أفكاره ومن خلال خروج تفسيراته عن مسارها ومن خلال الصراع بين الأحزاب الشيوعية في العالم ومن خلال الاختلاف بين تقديراته وتنبؤاته وبين الواقع • وهكذا يسقط من يتطاول ليرى محمدا (صلى الله عليه وسلم) وهو الرجل الأمي في جزيرة قاحلة عام ٦١٠م منافسه الفكري الوحيد ويظل الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم يكسب المعارك الفكرية ويؤلف قلوبا جديدة في عواصم الفكر وبلاد المذاهب الالحادية •

ولو أن هذا المتنبيء الجديد صدق نفسه وفاء الى رشده لبشر بان كثير المنافسة ليست قائمة الا في وهمه ، وان الاتساق في هـذا الفكر وسحر الألباب ليس هو قول البشر وانما هو القول المعجز •

ومن خلال قنطرتي التشبيه بين أعمال الكفار وبين السراب الذي لا يحوي قطرة من بل الصدى وبين اعمال الكفار وبين ذرات الرمال التي تشتد بها الريح جريا في اليوم العاصف يتضح للمؤمن ان أملا في أن يجد هؤلاء حسنا على بعض أعمالهم الدنيوية أو أن يجدوا مرتفقا غير كائن • ان هاتين الصورتين اللتين يحلو للمرء ان يشاهدهما ولو من خلال المطياف ستبقيان تعطيان المسلم المدد الثقافي والفكري لقوة اليقين وثبات العقيدة ووضوح المواقف بل والغاء الأوهام الكاذبة وشباك المغالطة والتدليس

(٣١) Business Week, April 4 , 1977 , P. 15 .

والطابورية الخامسة عبر صدقات مشبوهة واحسان مكذوب ومعونة مبطنة ٠

ان المسلم الملتزم بعقيدته ليعبر منطق الله تعالى عبر سبع سموات ـ وهو من خلال بيئته في الحر او القر ـ يترجم عن ارادة رب العالمين وموازينه ومقاصده ٠ ان المسلم الملتزم بعقيدته المقبل على ربه بالطاعات عبادة وتفكرا وتدبرا يقترب ليكون سمع الله وبصره ٠ وهكذا تظل بيئة الانسان في غناها وتنوعها واختلافها هي الآيات الربانية التي تذكر المسلم اذا نسي وتحبب اليه الايمان وتزينه في القلوب وتغري بالخالفين والناكبين والقاسطين ترصدهم وتكشف مواقعهم وتحول دون الانخداع بمسلسلات أباطيلهم وصيغ مشروعاتهم ٠

ثم ان الطبيعة تبدو من خلال التصور الاسلامي حبيبة المسلم ومتحرك الكثير من أسرار عقيدته ، وخفايا حكمته ٠ بل ان الطبيعة ستبقى في عيني المسلم جدة تلمع ، وكأنها حديثة العهد بربها ، فهي حاملة الاسرار وهي الموحية بالأسرار ، وهي الامينة على الاسرار[٣٢] ٠ وأين ذلك ممن حرموا هذه النعمة فعموا وصموا ، وعموا وصموا ، واقبلوا على المسكرات والمخدرات ، وعكفوا على الشهوات ، وألغوا سمعهم وأبصارهم ودمروا أنفسهم ومروا عن الدنيا وكأنهم لم يروها ٠

ان المسلم وهو يتلو قوله تعالى : (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) سورة البقرة : ١٦٤ ليحس وكأنه يعيش في مناخ الحركة والنشاط الدأب (الديناميكية) الذي لا يكاد يغفل عن صفحات الكون

---

(٣٢) من كلام الامام علي رضي الله عنه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحي الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه : ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة ٠ الجمان ص ٨٠ ٠

الدائمة التحرك انه يحس وكأنه ينبغي ان يعيش كل لحظة من حياته في التفكر والعمل والبناء والاقبال على الله تعالى بنفس واثقة وخطى متزنة ، وصدر منشرح ٠

وقوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ٠ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦ ٠

س = الكاف

مثل الكافرين في عدم اهتدائهم = الكلب يلهث في حالي زجره وتركه الى الله بلغوا الاسلام

أم لم يبلغوه ٠ وأحوال الكافرين

وكيف تعتمل نفوسهم أمر يطلع

عليه من يعلم السر وأخفى ويطلع

على الافئدة وما تخفي الصدور

واضح من قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه ٠٠٠ الآية) حاجة القرآن الكريم الى السنة النبوية المطهرة لاعطاء المزيد من البيان وواضح من ايراد القصة[٣٣] والتعقيب عليها بالقول : ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا – ان العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قالت الفقهاء ٠

---

(٣٣) قيل ان صاحب القصة هو بلعم بن باعوراء من علماء بني اسرائيل سئل أن يدعو على موسى واهدي له شيء فدعا فانقلب عليه واندلع لسانه على صدره فأدركه الشيطان فصار قرينه ٠ انظر تفسير الطبري والنسفي وابن كثير والجلالين ٠ وقد وردت اسماء أخرى للقصة في مواطن متعددة من كتب التفسير ٠ وفي رواية أخرى نزلت في أمية بن أبي الصلت انظر الفخر الرازي وابن كثير والبغوي وأسباب النزول للواحدي) ٠ وفي رواية : أبو عامر الراهب او الوليد بن المغيرة ٠ (أنظر في ظلال القرآن) ٠

نحن أمام توظيف جديد لعناصر البيئة الانسانية وفتح باب من المعلوم على المجهول . ان نفسية الكافر وما يدور فيها من تهويمات وما يعتمل فيها من أفكار أمر يجهله المسلم لانه لا يعلم ما في الصدور ، ولكن المسلم يعلم ان الكلب يلهث ان حمل عليه ويلهث ان ترك واللهاث دليل ضعف وعجز .

واذاً فان قنطرة تقوم بين أمر كان مجهولا وهو أمر معنوي وبين أمر محسوس معلوم ، وهكذا يغدو التشبيه في القرآن الكريم تقريبا الى المسلم وشرحا وايضاحا وقوة برهان ، ثم ان هذا المعلوم أمر محسوس موجود في كل زمان ومكان ، كان على زمن نزول القرآن الكريم وهو قائم اليوم ، ومن ثم فان هذا المعلوم للمتثبت لهو في قوة اعادة التجربة العلمية ، وبذلك تبقى به قائمة الحجة .

وفي التشبيه الدليل للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين أن قطاعا من الناس سيظل في دائرة الكفر ، اذ مهما انتشر الاسلام ومهما امتد وضرب بجرانه ، فان اناسا سيبقى أمر اهتدائهم الى الدين - أباللين كانت الدعوة ام بالعنف - غير قائم وذلك لانهم ألغوا أدوات الانتفاع والاهتداء واتبعوا الهوى . قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) الأعراف : ١٧٩

وفي التشبيه التأييد المعنوي للمسلم الذي له المثل الحسن في مخلوقاته واين منه حال الكافر والتقاؤه ولهاث الكلب على صعيد واحد . ان هذا التقزز الذي لا يخفى على كل انسان سيظل يعيد الى نفسية المسلم شعور الزهو والزكاة النفسية وتعاليه على الكفر مهما تقلب في البلاد وتهندم من لباس وارتفق من آلات وأدوات وأوان . ان لهاث الكلب سيظل ينادي على هؤلاء بالذلة والخسة وسيظل للانسان المسلم التعزيز بالمضي قدما في حسم المواقف لصالح الرؤية الاسلامية التي تنعقد منها خيوط السماء بخيوط من الارض عبر قناطر التشبيه ومعادلاته .

واذا كان الكلب قد جاء في هذا السياق في المثل غير الحسن ، فان هذا معني به الانسان وحده لان الأمور بالنسبة اليه ، والمعاني من خلاله . ومن يدرينا لعل اللهاث في الكلب لدى الكلاب من صفات الكلوبة كما الشاربان من صفات الرجولة . وها هو الكلب يأتي في سياق الصيد في موقف الاعزاز (يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله) المائدة : ٤٠ .

انها اللقطات الفنية التي تعزز المعاني والمقاصد وتوظفها في خدمة النص . وهكذا تقوم القناطر باستمرار ما بين المعاني والنصوص من جهة وبين عناصر البيئة المحلية من جهة اخرى ، بل تكاد ترتبط هذه بأمور ذاتية لكل فرد . فالذي يربي كلبا يعقد في أم أفكاره مشابهة بين الكافر وبين كلبه والذي يرى كلب الجيران العملاق تقوم قنطرة المشابهة مع هذا الكلب والذي يرى كلب الجيران القمىء تنعقد المشابهة من خلاله والذي يرى الكلب في بلد دون غيره تنتظم في ذهنه عقود المشابهة بين الكافر وبين ما يعرفه عن الكلب او لنقل وبين معطياته الثقافية ومدركاته. ومعنى هذا ان القرآن الكريم سيبقى يثير في كل نفس عوامل ذكريات ومعطيات ذاتية وسيكون الاحساس بالمعاني متفاوت الطعوم والنكهة والتأثير . وهذا ما يجعل آيات الله تعالى ترتبط في النفس الانسانية بروابط حية ونامية . وهذا في الأسرار التي تظل تجعل القرآن الكريم حيا في النفوس في كل زمان وجيل ، وتظل أمثلته قادرة على تحريك المشاعر والوجدانات لجميع الناس كل في عصره وموقفه ومتفاوت حظه من الثقافة والمعرفة ، ناهيك عن الجدة التي تذكي العيون فيظل كل ما في الطبيعة من ظواهر يستأهل أن يدرس وان يكون موضع تأمل — في الخير الظاهر بان أم غايره . وما نظن أن أحدا يقرن بين المثلين : الكافر في تأبيه ونكوبه وكلب معين في لهاثه — يمكن لذاكرته ان تفلت هذا المعنى او النص الذي ارتبط به لسنوات كثيرة — وهو في العوامل التي تيسر القرآن للذكر والذاكرة . بل ان كل كلب او صورة كلب تقع عليه الانظار سيكون في المفاتيح التي تذكر بالمعنى والنص واستلهام المواقف منهما — المواقف التي تنعكس على طرائق التفكير وانماط السلوك . انه

تثبيت المقاصد والمعاني من خلال التعزيز بالحسيات ، وهو أمر يزيده الغنى الثقافي والبيئي والحضاري وضوحا على وضوح ٠

التشبيه في القرآن الكريم :

وصدورا عن ذات المعادلة وهو فتح باب من المعلوم على المجهول ، وفتح باب من المدرك على الغيبي فاننا سنعيش لحظات سعيدة مع مواقف تشبيهية في القرآن الكريم ، مستفيدين مما سبق الى التنويه به والوقوف عنده أعلام كبار ، وأسلاف أفاضل ، كأبي الحسن الرماني المتوفى سنة ٣٨٦هـ وكأبي هلال العسكري المتوفى ٣٩٥هـ والباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ في «اعجاز القرآن» ثم الخفاجي في «سر الفصاحة» وابن ناقيا البغدادي ت ٤٨٥هـ في تشبيهات القرآن وضياء الدين بن الأثير في «المثل السائر» وعمدتنا في الأصول والكليات الامام عبد القاهر الجرجاني في «أسرار البلاغة» و «دلائل الاعجاز» ٠

وسنضرب صفحا عن تقسيمات الرماني والعسكري التي يتداخل بعضها في بعض[٣٤] مكتفين بالوقوف عند الكليات التي قد علم عليها الامام عبد القاهر أو عند ايحاءاتها ٠ وفي هذا ما فيه من حد جموح النفس الى التعلق بمصطلحات التقسيم والتبويب والآلية التي تجفف الرواء وتذهب بالمائية ٠ وفي هذا : التعامل مع النصوص القرآنية وكأن كل نص في نسقه هو نسيج وحده ، وهو النكهة الخاصة ، والقيامة الذاتية ضمن المناخ القرآني العظيم ٠ وفي هذا ما فيه من نشوة التعامل الجمالي وتتبع أنساق الكلم في مواقعه الكثيرة وغنى الاستيحاءات من النص الحي الناطق المتفرد في الخلق والمجاورة ٠

وقوله تعالى : (له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال) الرعد : ١٤ ٠

---

(٣٤) انظر في ذلك : اخراج مالم تجربه العادة الى ما قد جرت به عادة ٠ المعجزة الكبرى ص ٢٦٧ ٠

س		الكاف
عبادة الأصنام وتوهم الاستجابة	=	بسط الكفين الى الماء للشرب
معنوي	=	حسي

ان الذين يعبدون من دون الله تعالى ويتعلقون بأوهام الاستجابة وتلبية الرغبات وهو أمر يتصل بالمعتقدات الذاتية لكل انسان ودرجات الوضوح في معتقده وهو الأمر النفسي المعنوي الذي لا يقف على دخيلته الا رب العالمين الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور لكالباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وهو أمر محسوس موجود في كل بيئة وفي كل زمان ٠ وهكذا يكتسب المجهول لدى المسلم قوة الوضوح من خلال المعلوم المحسوس الذي له قوة التجربة العلمية في التحقق والتثبت والمعاينة ٠ وهنا أيضا يرتبط التشبيه بغنى الايحاءات المتصلة بالبيئة الجغرافية لكل فرد ٠ فأهل الأنهار يتصورون المنظر من خلالها وعلى حوافها وأهل مياه الجمع فكذلك ، وغيرهم ممن تختلف عندهم وسائل التعامل مع الماء ٠

يقول سيد قطب : وهي صورة تلح على الحسن والوجدان ، وتجتذب اليها الالتفات ، فلا يستطيع ان يتحول عنها الا بجهد ومشقة ، وهي من أعجب الصور التي تستطيع ان ترسمها الالفاظ : شخص حي شاخص باسط كفيه الى الماء ، والماء منه قريب ، يريد ان يبلغ فاه ، ولكنه لا يستطيع ولو مده مدة فربما استطاع ! (٣٥) ٠

ولعل الاشارة بوجود الماء لدليل على وجود غريزة التدين والاقرار بالعبودية لدى الناس ولكن هذه الغريزة لا تجد الطريق الى ارواء الغلة لنكوب الأسلوب الصحيح* ٠ وهكذا لا يستطيع ان يشرب من الماء من

(٣٥) التصوير الفني في القرآن ص ٣٥ ٠

★ لقوله تعالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) الزمر : ٣ ٠

كان على مقربة منه ، ومن لم يحسن ان يغرف بيديه لان الماء لا يثبت على الكفين المبسوطتين . فكذا من راموا التعبد ولكنهم ضلوا الطريق الصحيح اليه .

وقوله تعالى : (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا او نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) يونس : ٢٤ .

س	الكاف
مثل الحياة الدنيا وهو أمر معنوي	= ماء السماء + اختلاطه بالنبات + ... وهي أمور حسية جرت العادة بمثلها .

وهنا انعقدت معادلة التشبيه بين أمر معنوي هو مثل الحياة وبين لوحات ومناظر طبيعية نسق بعضها على بعض . وهذه اللوحات كلها مما تألفه البيئة الانسانية وما جرت العادة بأمثاله . وسيكون لنا وقفة عند الآية القرآنية الكريمة عند الحديث عن التمثيل ان شاء الله تعالى .

وقوله تعالى : (انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) سورة القمر : ١٩ ، ٢٠ .

مجهول	معلوم
	كأنهم
س طريقة اهلاك قوم عاد ، وهو أمر مغيب عنا	= أعجاز نخل منقعر

أهلك الله تعالى قوم عاد بالريح التي تقلع الناس وتقتلهم . ولما كان هذا المشهد الرهيب هو طي الزمان السحيق ولا يحيط خبرا به الا رب

العالمين الذي أودع كل سر كتابه ، فان قنطرة المشابهة تنقل الينا مدينة الأشباح وآثار القوم عبر صورة حسية مألوفة ومعلومة تجري العادة بمثلها وتتوفر في كل زمان ومكان ينبت فيه النخل • وكلما دقق المرء في موحيات المشبه به كان أقرب الى استجلاء الحقيقة التاريخية والأحداث الماضية • وهكذا تنقل أسرار الماضي ، واشراقات المستقبل ، وموازين الحق عبر صور حسية لها قوة التجربة ، واعادة التثبت ، والتحقق • وهكذا يصبح التفرس في الوجود استلهاما للماضي واستشرافا للمستقبل وعبورا الى غير المدرك وهكذا يصبح التفرس في الوجود تفكرا وعبادة يقترب بها المرء من ربه ويزداد معرفة به •

ولا مشاحة في ان لكل لفظة في المشبه به ايحاءات غنية دالة ، وكلما أتيح للعقل نضج علمي ظفر باسباب وضوح أعمق وأشمل • وليتح المرء لنفسه تصور بستان من النخل فيه أسراب كثيرة كثيفة ، ثم ليتصور بين هذه الأشجار أعجاز نخل كثيرة مقلوعة • وقد جرت العادة حين القلع ان يحفر حفر عميقة لأن تأود النخلة في الأرض كبير • ولو أتيح للنخلة أن تقلع من جذورها لتركت موضعها حفرا • أضف الى هذا منظر هذه الأعجاز قشرة ميتة خالية من الحياة ، والصمت الرهيب الذي يتداخل فيه منظر النخل الميت مع السيقان الحية وما يشوبه من ظلال شجر النخيل في نهار مشمس او في ليلة قمراء • ان هذا المنظر هو بحق مدينة أشباح وهو صورة الصمت مع تناثر الاشلاء والحطام • ولو أتيح لانسان ان ينظر بعيني طائر الى مصارع قوم عاد وحالهم بعد أن غادرتهم الريح بعد الهلاك او لو ان صورة كلية التقطت لهم من الجو لكانت الصورتان متقاربتين في الشبه والظلال •

أما لماذا كان التشبيه بأعجاز النخل دون أعجاز الزيتون أو التين مثلا ؟ ان ذلك لما يتصل بحقيقة الأمر وقرب الشبه • هل جائز ان القوم كانوا طوال الاجسام بما يجعل وصفهم بالنخل أقرب ؟ ان هذا على الأقل ما توحي به الدلالة الهامشية للالفاظ • واذا قارنا هذا الوصف لقوم عاد بوصف آخر في موضع آخر من القران الكريم نجد ان القران يفسر بعضه

بعضا . ففي سورة الأعراف جاء قوله تعالى في وصف عاد : (وزادكم في الخلق بسطة) ٦٩ .

وان كتب التفسير وأخبار الماضين تحدث بذلك واذن ففي اختيار النخل ايحاءات تغني جوانب الصورة . ثم ان قوله تعالى تنزع الناس لهو أمر موح ايضا . ولم تجر العادة ان تصل الريح حدا من السخط تدخل البيوت والأكنان وترفع الناس منها بقوة ثم تلقيهم على الأرض جثثا هامدة . وها نحن بدأنا نسمع عن قنابل النيوترون التي لها قدرة قتل السكان دون المساس بالممتلكات . ثم نحن قد قرأنا عن القنابل الارتجاجية التي تقتل الناس بالذبذبات العالية التردد . ثم هل نستطيع أن نستوحي ان قوله تنزع الناس دليل على أن قوم عاد كانوا يتمترسون بخنادق وسراديب أرضية وصخرية ؟ ان اللفظة القرآنية تحمل ايحاءات كثيرة على هذا السبيل . وقد أكد هذا الايحاء القرآن الكريم في سياق آخر حين ذكر رب العالمين قوله : (واذكر أخا عاد ، اذ أنذر قومه بالأحقاف) الأحقاف واد . الأحقاف : ٢١ . وقوله تعالى (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم) الأحقاف : ٢٤ .

ويقيننا لو ان ظفر الناس بصورة صادقة عن اخبار الماضين اذا لكان لتفسيرنا البياني نشوة أكثر تطريبا . ويقيني أن لو يتاح للعالم الاسلامي ان يرصد لهذه القضايا المنح والأرصدة لتفتقت أذهان مسلمين غيارى ومنقبين عن وقائع تستهدي بالتفسير البياني وتحقق المزيد المزيد على طريق الاستجلاء والاستيضاح . وان المسلم مأمور أن يبحث وأن يتدبر وان يسافر وان يأخذ العبرة من الأقوام السابقين ومستعمراتهم ومصانعهم .

وأصول النخل المنقعر هل تعني أن هذه الريح كانت تنشف أمعاء الجسم وأوعيته الداخلية بحيث تبقى الجثث وكأنها شن . وتكون بذلك الجلود قد يبست وبانت الجثث اسطوانات خفيفة فارغة . ان هذا على الأقل ما يوحيه انقعار أعجاز النخل . وقد رفدت كتب التفسير هذا الايحاء عندما ذكرت ان الريح كانت تدخل من مناخر قوم عاد وتخرج من أدبارهم .

وقوله تعالى أعجاز نخل دون التحلية بأل اشارة الى ان بعض أشجار النخل هي الملقاة وليس جميع الشجر في البستان الواحد · وهو أمر معلوم تجري به العادة ويألفه الناس الذين لهم بزراعة النخل ارتباط · او يعني وجود أعجاز ميتة بين شجر قائم وأخذ صورة كلية لذلك عن بعد ان الناس من قوم عاد قد أهلكوا في وقت ظلت فيه دورهم قائمة ومساكنهم سليمة ؟ ان هذا حتما ما توحيه دلالات التشبيه ، وان هذا الايحاء نستيقن من صحته بما أكده رب العالمين في سياق آخر عن عذاب قوم عاد · قال تعالى : (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم · تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم ، كذلك نجزي القـــوم المجرمين) الاحقاف : ٢٤ ، ٢٥ ·

هكذا يزداد المسلم معرفة بربه وآياته وأسرار الوجود كلما أرهف السمع وحدد البصر وأخلص الانقياد لله تعالى · وهكذا تتراءى الدنيا للمسلم دار العبور التي تغني المعرفة وتقوي منّة التدبر وأخذ العبرة · قال تعالى : (من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) والعمى ليس عمى البصر ولكنه عمى البيئة والمدركات · وهكذا تنطبع أسرار الوجود والمقاصد العلوية في نفس المؤمن حتى لتصبح انطباعاته الأولية فراسة وألمعية · أوليس الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله) ؟

وقوله تعالى (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) الرحمن : ٣٧ ·

وردة : محمرة ، الدهان : الأديم الأحمر ·

الكاف

س	=	الدهان (حسي معلوم)
حال السماء		
يوم القيامة		
وهو أمر مغيب		
ومجهول		

في الآية الكريمة تنقل الى المسلم أسرار أحوال السماء يوم القيامة وهي صورة مستقبلية ما كان لأحد أن يستبق معرفتها ولا يملك تجلية الأمر حولها • وهي تنقل الى المسلم عبر مشبه به محسوس معلوم منتزع من البيئة الانسانية وهذا المحسوس المعلوم في كل زمان ومكان فهو له قوة التجربة العلمية من حيث الاستحكام •

ان وجه الشبه بين الأمرين هو الاحمرار والصقل فكما ان الدهان يكون صقيلا املس لا نتوء فيه ولا خشونة فكذلك تكون السماء يوم القيامة • وهي صورة تسبق الى ذهن المسلم فتكون لديه فراسة في الوقوف على أسرار الوجود والتفرس في الأحوال المختلفة عبر ايحاءات التشبيه المنتزعة من البيئة المحلية • وهكذا يستطيع أفقر المسلمين بيئيا ان يكون على فراسة وحكم على الأمور اكثر صوابا من علماء على غير الاسلام ولا اهتدوا بهديه أو تدبروا آياته •

وقوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) الحديد : ٢٠ •

الكفار : الزراع ، يهيج : ييبس ، حطاما : فتاتا •

الكاف

س = مطر (هذه حالته)

مثل الحياة الدنيا وتصرم نعيمها
وهو أمر لا يعلم ماهيته الا الله
تعالى الذي يحيط بالزمان والمكان

جاز المسلم الى ماهية الحياة الدنيا ومآلها وهو أمر معنوي عبر قنطرة التشبيه التي وصلت المعنوي بصورة معلومة محسوسة موجودة في البيئة الانسانية كل زمان ومكان • وهكذا تنعقد المعاني القرآنية والحكم الربانية عبر البيئة الانسانية وغنى عناصرها وأحوالها بما يتيح للمسلم

ان يعيش الحياة الدنيا بكل معانيها ليعبر منها الى الآخرة بأوضح ما يكون التصور وأجلاه ٠

أما وجه الشبه فهو تصرم النعيم الدنيوي والعرض الزائل ٠ فأما المؤمنون فلا يتعلقون بحظوظ الدنيا ثقة منهم بزوالها وهؤلاء لهم مغفرة من الله ورضوان ، وأما الكافرون فيتعلقون بهذه الحظوظ التي وشكان ما تصبح حطاما كأن لم تكن وهؤلاء لهم في الآخرة عذاب شديد ٠

وقوله تعالى : (سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) الحديد : ٢١ ٠

الجنة	الكاف	
س	=	(السماء + الأرض)

وهو أمر غيبي يتولى تعريفه رب العالمين

ويزيد الأمر وضوحا قوله تعالى في سورة آل عمران (وجنة عرضها السموات والأرض) :١٣٣ ٠

يرغب الله تعالى بالفضل وسعة الخيرات في الجنة هذه السعة التي تتناسب طرديا وسعة المكان فقرب الجنة من التعريف عبر مدركات البيئة الانسانية ٠ واذا كان عرض الجنة فقط هو كعرض السماء وهو عرض هائل لا تحده الظنون بل هو عرض متناه بدليل قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) الذاريات : ٤٧ بدليل ان الشمس على بعدها ليست عنا بأبعد من ثمان دقائق ضوئية فكيف اذا كان في النجوم ما يبعد عنا مئتي سنة ضوئية* ، وان سرعة الضوء هي ١٨٦ر٠٠٠ ميل في الثانية أو ٣٠٠ر٠٠٠ كم/ث يضاف اليه عرض الارض وهو أمر كبير أيضا ومعلوم ، فمعنى ذلك أن طولها هو حتما في الآماد التي لا يكاد العقل

* اقرب نجم الينا هو الاقرب القنطوري وهو يبعد عنا قدر بعد الشمس عنا بمقدار ٢٧٠ الف مرة ٠

الانساني يظفر بنهاياتها اذ من البدهي ان الطول هو اكبر من العرض او يساويه في أقصر أحواله وبالتالي فان مساحة الجنة ستكون في السعة البالغة · ولو تصورنا مثلا طريقا بين القدس والقاهرة وليكن طولها ألف ميل فان عرضها قد يجاوز الخمسة أمتار · وهكـــذا فان تكثر الطول بالنسبة للعرض لهو امر يتفلت من كل تقدير · وهكذا وظفت البيئـة الانسانية والمدركات في بناء تصور عن غير المدركات وعن الغيبيات ·

وقوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين) الجمعة : ٥ ·

مثل الذين حملوا التوراة

الكاف

س	=	حمارا يحمل أسفارا
ثم لم يحملوها ، وهو أمر لا يعلم حقيقته الا رب العالمين الذي يحيط بالزمان والمكان		(معلوم محسوس)

يقرب الله تعالى الى المسلم أحوال بني اسرائيل ونكوبهم عن أمانات التعليم السماوي والوصايا · فكان تناقلهم لبعض صحف التوراة وألواحها من غير ان ينتفع بها كالحمار يحمل كتبا ورقائق الكتابة · والحمار من البيئة كما هي الكتب · وانه لمن البدهي ان يعلم الناظر ان الحمار يحمل الكتب دون ان يفيد منها · وهكذا اجتمع المعلوم المحسوس مع البداهة في تقرير أمر مضى به الزمان عبر قنطرة التشبيه ·

وقوله تعالى : (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) الحاقة : ٧ ·

حال عاد عشية موتهم :

الكاف

س	=	أصول النخل الساقطة الفارغة

يقرب الله تعالى الى المسلم حال قوم عاد وقد أهلكتهم الريح الصرصر بأصول النخل الساقطة الفارغة . وأصول النخل الساقطة الفارغة أمر متوافر في البيئة الانسانية وموجود في كل زمان ومكان . وهناك من أصول النخل الساقط ما هو غير فارغ . واذن يكون التشبيه بالخواء دليلا على أن قوم عاد لم يكن فيهم من ايمان في حياتهم الدنيا فكأنهم كانوا أجسادا بلا أرواح .

وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) العنكبوت ٤١ .

الكاف

س		= العنكبوت اتخذت بيتا يقيها
مثل الذين اتخذوا من دون الله		
أصناما يرجون نفعها		الحر والبرد والمطر .
وهو تعلق معنوي		

أعطى الله تعالى للمسلم صورة من اتخذ من دون الله أصناما حجرية أو بشرية يرجو نفعها من خلال صورة العنكبوت اتخذت بيتا يقيها الحر والبرد والمطر ، والعنكبوت أمر كان قائما في البيئة الانسانية يوم نزول القرآن الكريم وما يزال قائما . وهكذا وظفت العناصر البيئية واستخدمت فنيا لنقل الاسرار العلوية والمقاصد الالهية . وهكذا تتسع لغة المدركات عبر جسور التشبيه والمجاز وضرب الامثال وسوق القصص .

وأما قوله تعالى : (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فان فيها من مشحون الايحاءات ما فيها . وأيما مسلم يعرف دلالات اللغة ليعلم ان في الاية سرا جاء التنويه به عرضا . وها قد أثبت العلم ان الذي يصنع البيت هو أنثى العنكبوت لا الذكر . واذاً فالتأنيث للعنكبوت ليس تأنيث لغة وانما هو تأنيث ايحاء ودلالة . وقد تبين ان خيط العنكبوت لهو أمتن أنواع الخيوط بالنسبة الى قطره ، واذاً يكون لهذا الوهن مع هذه القوة دلالة علمية كبيرة . وقد دل العلم على أن قطر

الخيط الواحد منها لا يزيد على ثلاثة أعشار جزء من ألف من المليمتر ؟ أي أنك تحتاج الى ٣٣٣٣ خيط من خيوط العنكبوت ، تجمعها وتصفها في رزمة واحدة ليصبح قطرها مليمترا واحدا (ملحق مجلة العربي العدد ٢٢٢ حزيران ١٩٧٧) .

ومع متانة خيوط العنكبوت وهندسة بنائه الا ان أساساته من الوهي بمكان كبير اذ يقوم البيت على متعلقات واهية كورقة شجرة متحركة او خشبة أو أساس غير ثابت . ومن ثم فان هذا البيت المتين الرائع وهذا الجهد المنسق لا يقوى على مواجهة المطر او الريح او غير ذلك من أسباب التحصن ووجه الشبه في الأمرين هو أن الذين يبحثون عن خالق يعبدونه مثلهم كالذي يملك الخيوط القوية لبناء مستحكم ولكنهم بتوجههم بالعبادة الى غير الله يكونون كمن ملك مادة البناء القوية ولكنها ترسى على أساس واه فلا ينتفع من قوتها* . وواضح من التشبيه أن وجه قوة بين هذه المعبودات وبين خيوط العنكبوت القوية . ومعنى ذلك ان هذه المعبودات سواء أكانت حجرية أم بشرية أم فلكية لهي في الهيمنة بحيث ألقت في روع هؤلاء أنها قادرة على الخصب أو الخير أو الشر أو الانتقام كما رأينا في قصة أخيل في الأدب اليوناني الذي تعاقبة الآلهة بشوكة في قدمه تودي بحياته ومنها ما بلغ في التناسق والجمال مبالغ شتى كالنجم والقمر والشمس أو فينوس أو جوبيتر أوزيوس الا ان هذه مهما علت في الهيمنة فهي على ضعف كما هو بيت العنكبوت .

وقوله تعالى : (وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام) الرحمن : ٢٤ .

★ حاول الدكتور مصطفى محمود أن يفسر هذا الامر علميا فقال ان بيت العنكبوت ليس بيتا فيه الطمأنينة لكنه مصيدة يمارس فيها البطش والارهاب حتى ان ذكر العنكبوت يولى هاربا والا كان جزاؤه القتل . والواقع ان هذا التفسير لا يحمل على الاقناع لان ممارسة البطش والقتل من جانب العنكبوت لهو قوة لها وليس وهنا ، وكرر ذلك في صحيفة اللواء (الاردنية) عدد ١٩٧٧/٨/١٧م .

الجوار : السفن الجوار وهنا نابت الصفة عن الموصوف ٠

المنشآت : المحدثات ٠

الأعلام : الجبال ٠

الكاف

س = الأعلام

الجوار المنشآت

ما كان منها وما سيكون معلوم محسوس

يمن الله تعالى على الانسان بانه يجري السفن التي تشبه الجبال في البحر ٠ وهنا وان كان طرفا التشبيه من عناصر البيئة الانسانية ، الا أن أحد طرفي التشبيه خفي والآخر جلي ٠ اما وجه الخفاء في الاول فهو في عدم الوقوف على ما سيكون من أمر هذه الجوار في مستقبل الزمان من حيث حجمها ٠ وهنا نحس أمام هذا التشبيه بعظم القرآن الكريم وجلاله ، فان القارىء لهذه الآية ليحس ان مستقبل البشرية كان ينبي عن بناء سفن تضارع الجبال العظيمة حجما واتساعا ٠ وها هي ناقلات البترول العملاقة لهي في الواقع الذي كان يجاوز تصور الاجيال السابقة وهي في مزيد ٠ واذا لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم السفن في حجم الجبال فان هذا التشبيه كان نقلة ايحائية الى ما يتسم به الله تعالى من منن على العقل الانساني ، هذه النقلة التي تنجلي بوضوح أكبر كلما أتيح بعد من الزمان أكبر ٠ وهكذا تكبر الحجة على العقل الانساني كلما ازداد العقل الانساني نضجا ومعرفة ٠ وفي ذلك يقول الخفاجي : شبه الشيء بما هو أعظم منه على وجه المبالغة(٣٦) ٠

وانا لنستبعد هذا التفسير ونستبعد ان يكون في المنهج القرآني في التشبيه مبالغة وانما هو التطابق بين صورة خفية وصورة جلية ، بين عالـم غيبي وعالـم حسي ومدرك وهو ما يتسق في كل ما فسرناه بيانا ونفسره ٠

(٣٦) سر الفصاحة ص ٢٩١ ٠

وقوله تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) يس : ٣٩ ·

كالعرجون : كعود الشماريخ اذا عتق فانه يرق ويتقوس ويصفر ·

خفي	الكاف	
س	=	معلوم العرجون القديم

يقرب لنا رب العالمين أحوال القمر ودخوله في المنازل المختلفة حتى يدق ويكاد يخفى بالعرجون القديم · والواقع ان للتشبيه في هذه الآية الكريمة ايحاءات مكثفة · فالقمر في تقوسه لهو شبيه بالعرجون القديم من حيث تقوسه · والعرجون القديم ذاو لا حياة فيه وها نحن قد وجدنا القمر خلوا من الحياة وهو أمر كان على الناس في الماضي خفيا[٣٧] · ودلالة أخرى وهي ان القمر يتناهى في الصغر التناهي يدق عن البصر ولكنه في حقيقة الامر لا يفنى وهي اشارة الى الظواهر الجغرافية ما كان أدعى العلماء المسلمين الى أن يستجيبوا لها لو لم يشغل العالم الاسلامي بعد القرن الرابع الهجري بفتن سياسية لا تزال شرورها تكبر وتزداد ·

وقوله تعالى : (وحور عين · كأمثال اللؤلؤ المكنون) الواقعة : ٢٢ ، ٢٣ ·

	الكاف	
س حوريات الجنة	=	اللؤلؤ المكنون
وهو أمر غيبي	=	أمرا معلوما محسوسا

والحور : شدة سواد العين في بياضها

عين : عيون نجل واسعة

المكنون : المصون والكن هو الستر

(٣٧) سبق الى هذه الاشارة د· مصطفى محمود في الفهم العصري للقرآن الكريم ·

قول الله عز وجل : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) سورة النور : ٣٩ فأخرج مالا يحس الى ما يحس ، والمعنى الذي يجمعهما بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة • ولو قال : يحسبه الرائي ماء لم يقع موقع قوله «الظمآن» لأن الظمآن أشد فاقة اليه ، وأعظم حرصا عليه(٣٨) ان الظمآن هو الذي يقامر بحياته في سبيل وهم ولو بلغ الجزء من المليار ذلك أن أي شيء أحسن من لا شيء وهو الموت المحقق •

الكافرون يحسبون ان ما ينفقون من أموال في المشروعات الخيرية او مساعدات للمحتاجين او تظاهر بذلك على الأقل انها ستقربهم الى الله زلفى • وهنا اشارة الى الكافر الذي يظمأ الى عفو الله تعالى بعد ضلال وهذا لن يجد ريا الا من خلال الاسلام • والله تعالى الذي يزن الأمور جميعا ومالك يوم الدين ، يقرر في وضوح لا لبس فيه ، ان ظن هؤلاء في النجاة كظن الظمآن يرى السراب فيحسبه ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب •

الظن والتقدير لدى الكافرين هو أمر عقلي ونفسي لا تطاله الحواس • ان الله وحده هو المطلع على الأفئدة وهو الذي يعلم ما توسوس به النفوس الكافرة • ان هذه الوسوسة هي (س) او المجهول الذي لا يعلمه المسلم •

الكاف هي أداة التشبيه •

المشبه	الكاف
س	= السراب في القيعان
التوهم	يشبه الماء ولا ماء
بالخير	المشبه به = معلوم
المجهول	التوهم بالماء (محسوس)
معنوي	

(٣٨) كتاب الصناعتين ص ٢٤٠ سر الفصاحة ص ٢٩١ المثل السائر ج ٢ ص ١٣٠ •

واذاً يعبر المسلم الى نفسية الكافر من خلال المدركات التي تتواجد في بيئته وما يقع عليه حسه · ان التشبيه هو القنطرة التي يتم عليها نقل المعلومات من المعلوم الى المجهول ·

وقوله تعالى : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) الدهر : ١٩ ·

بصفة الولدان لا يشيبون ·

	حسبتهم	
س	=	لؤلؤا منثورا
لقطة من مشاهد الجنة		(معلوم محسوس)

يقرب الله تعالى منظرا من مناظر أهل الجنة فيبدو القائمون على خدمة المؤمنين في نظرة كلية ولنقل بعيني طائر كاللؤلؤ المنثور · ووجه الشبه لا شك هو صفاء البشرة ونقاؤها ونظافة الثياب وصفاء الآنية ثم التوزع على الأماكن المختلفة · ومع كل هذه الايحاءات سيبقى المشبه منجما لا ينضب من حيث غنى الايحاءات ودلالاتها ·

وقوله تعالى : (انها ترمي بشرر كالقصر · كأنه جمالة صفر) المرسلات ٣٢ ، ٣٣ ·

النار ترمي بشرر كأنه القصر في عظمه وارتفاعه ·

والجمالات جمع جمالة جمع جمل ·

شرار جهنم		الكاف
س	=	القصر
		كأن
شرار جهنم	=	**جمالة صفر**

شرار جهنم صورة غيبية تأخذ وضوحا لدى المسلم من خلال التشبيه بالقصر وهو أمر منتزع من البيئة الانسانية • وكذلك الجمالة الصفر • وهكذا توظف البيئة والمدركات للتعبير عن الغيب عبر قناطر التشبيه •

وقوله تعالى : (يوم تكون السماء كالمهل • وتكون الجبال كالعهن) المعارج : ٨ ، ٩ •

المهل : ذائب الفضة

العهن : الصوف

س — الكاف

السماء يوم القيامة = المهل

وهو أمر مجهول — وهو معلوم

الجبال يوم القيامة وهو أمر مجهول = العهن (وهو أمر معلوم)

س

وهكذا يبصر المسلم بأحوال القيامة من خلال مدركاته وبيئته • وواضح ان السماء ستكون من الوهي بحيث انها تذوب كذائب الفضة وتكون بغير وزن يذكر كما هو الصوف في خفته وطيرانه • وفي هذا ايحاءة سابقة الى تفاوت الأوزان في الأبعاد المتفاوتة •

وقوله تعالى : (يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون • خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة • ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) المعارج : ٤٣ ، ٤٤ •

الأجداث : القبور •

سراعا الى المحشر •

نصب : أعلام أو رايات منصوبة •

يوفضون : يسرعون •

خروج الموتى من قبورهم الى المحشر سراعا •

س — كأنهم

هو أمر غيبي = يسرعون الى موضع راية او معلم بارز

يصور لنا رب العالمين حال الموتى يخرجون من الاجداث الى صعيد المنشر وبصورة مفزعة وتلقاء ذاتي وكأنهم يسرعون الى معلم متفق عليه بينهم • انها صورة رهيبة حقا فيها ما فيها من غنى الايحاءات • ترى ما الذي يدفع الموتى الى أن يندفعوا هذه الاندفاعة الى مكان الحشر ؟ انه أمر الهي يفتح على المسلم بابا من التفكر من خلال قنطرة التشبيه على ما يضارع مثله في البيئة الانسانية •

وقوله تعالى : (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم ، وان يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة) المنافقون : ٤ •

كأنهم خشب ممالة الى الجدار :

كأنهم

س = خشب مسندة

المنافقون

في عظم أجسامهم

وقلة نفعهم

تقريب أحوال المنافقين الى الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال البيئة الانسانية ، وواضح ان الخشب التي تسند الى الجدار هي خشب كبيرة وعظيمة ، ولكن هذا العظم ينتقض من خلال جهنم كما في سياق الآية الكريمة (يحسبون كل صيحة عليهم) •

وقوله تعالى: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)• النمل: ٨٨

المشبه حركة الارض وهي مجهولة = مر السحاب وهو معلوم •

وهو ما تستدلون به على حركة الكرة الارضية واذا كانت حركة الارض غير واضحة بالنسبة للانسان من حيث حسه فقد أدخل عليها باب من الحسى فوضحت به •

وقوله تعالى : (وعندهم قاصرات الطرف عين • كأنهن بيض مكنون) الصافات : ٤٨ ، ٤٩ •

حابسات الأعين على أزواجهن لا ينظرن الى غيرهم •

عين : واسعة العيون •

بيض النعام المستور بريشه لا يصل اليه غبار ولونــه البياض في صفرة وهو أحسن ألوان النساء ٠

	الكاف	
س	=	البيض المستور
أمر غيبي		(معلوم محسوس)

ووجه الشبه : اللون الابيض + الصفاء + الحصانة ٠

وعبور الغيب من خلال المدرك عبر قنطرة التشبيه ٠

وقوله تعالى : (انها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنــه رؤوس الشياطين) الصافات : ٦٥ ٠

	كأن	
س	=	رؤوس الشياطين
أمر مغيب		

وقف البلاغيون والمفسرون بازاء هذا التشبيه موقفين :

١ ـ ان الشياطين هنا هي الحيات[٣٩] ٠ أو هي جبال بمكة[٤٠] ٠

٢ ـ رؤوس الشياطين غير مشاهدة ، الا انه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد ، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد[٤١] ٠

ونحن ـ التزاما مع المنهج الذي نحوناه ـ نرى أن تفسير الشياطين بالحيات أمر مستبعد لانه يتنافى وصريح الدلالات للالفاظ ٠ ولو كان المقصود هو الحيات ما الذي كان يحول دون ورودها وقد ورد ذكر الحية ؟ والأمر الثاني هو أن طلــع شجرة الزقوم أمر غيبي والتشبيــه برؤوس الشياطين هو تشبيه بأمر منتزع من البيئة الانسانية ، اذ العقل البشري قادر وان لم ير الشياطين ان يشكل لها في مخيلته صورة كأقبح مـــا تكون ٠ بل ان عدم تحديد هيئة قبيحة واحدة لهو اغنى في التأثير ، اذ

---

(٣٩) سر الفصاحة ص ٣٠٠ ٠

(٤٠) الجمان ص ٢٤٨ ٠

(٤١) سر الفصاحة ص ٣٠٠ ٠

يظل كل عقل يخرج من هيئة الى هيئة كل منها مخوفة في القبح ، وهي صورة لا حدود لها من حيث قوة التأثير ، واعمال الرهبة ٠

وهكذا كان التشبيه فتح باب من المدرك ولو بالقوة المتوهمة أو المخيلة على الغيبي ٠

وفي اللسان العربي ما يرفد هذا التفسير ، وهو قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وأنياب الأغوال مما لا يدركها الحس لعدم تحققها وانما هي مبنية على قوة التوهم(٤٢) ٠

يقابل ذلك التشكيل الحسن للملك الكريم في المخيلة كما ورد على ألسنة النسوة : (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، ان هو الا ملك كريم) يوسف : ٣١ ٠

والملك الكريم لا يرى ولكنه ما استقر في الذهن البشري من حيازته لشطر من الحسن كبير ٠

وقوله تعالى عن بلقيس : (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) النمل : ٤٢ فتح باب من المعرفة على الجديد من خلال معرفة الاصيل لان أنس النفوس موقوف على أن تردها في الشيء تعلمها اياه الى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ٠

وهكذا قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها) البقرة : ٢٥ حتى في الجنة بقي المؤمنون يوظفون مدركاتهم السابقة ومعطياتهم الثقافية في استيعاب المناخ الجديد

---

(٤٢) تلخيص المفتاح ص ٢٢٨ ٠

والتصوير الجديد . ولا غرو في ذلك فالجنة في نفوس المؤمنين قد مرت من الدنيا (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) محمد : ٦ وهذا التعريف كان من خلال التقريب بما هو معروف في المدركات وفي الحياة الدنيا .

وهكذا نجد ان منهج التشبيه في القرآن الكريم عقد (معاقد نسب وشبكة)(٤٣) بين ما يراد كشفه او ايضاحه وبين أمر واضح ماثل يمكن للناس ان يتحققوه وان يتثبتوا منه كل زمان ومكان وهذا في الأسباب التي تجعل القرآن الكريم ميسرا للذكر لدى سائر الناس سائر الأوقات . ان كل متصل ببيئته مهما كانت في الغنى البيئي او الفقر يستطيع ان يظفر ببعض معاني القرآن الكريم ويظل يتعلق بالايحاءات المتكثرة التي لا يشبع منها نظر ولا يحيط بها فكر .

ثم انه قد تبين لنا ان منهج التشبيه في القرآن الكريم لهو كمعادلة الرياضيات سواء بسواء ، وان طرفي المماثلة لهما في التساوي الحقيقي ، وهو مالم تألفه أساليب العرب في القول التي كانت تنحو منحى المبالغة في الصفة او اللون او الحركة حتى لقد اشترط بعضهم(٤٤) ان تكون الصفة في المشبه به أقوى منها في المشبه .

ان هذه الرياضية المطلقة لتجعل التشبيهات في القرآن الكريم أمرا مبرما وقوانين حتمية . بل انها تفوق القوانين الحتمية من حيث وضوح الدلالات البعيدة والمقاصد الخفية وبذا فان الالزام بها أوكد وأوثق ، وهو ما يضيف الى مبدأ الاقتصاد في اللغة واسرار الاعجاز .

التشبيه من حيث هو مفرد ومركب :

التشبيه من حيث وجه الشبه يأتي على ضربين :

أ ـ مفرد كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « انكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقي » يريد الخبزة البيضاء(٤٥) .

---

(٤٣) الالفاظ للامام عبد القاهر أسرار البلاغة ص ١٣٦ .

(٤٤) يقول ضياء الدين الاثير : فالتشبيه اذا يجمع صفات ثلاث ، هي : المبالغة ، والبيان والايجاز المثل السائر جـ ٢ ص ١٢٣ .

(٤٥) المثل السائر جـ ٢ ص ١٩ .

وقول النابغة الذبياني :

وانك كالليل الذي هو مدركـي   وان خلت ان المنتأى عنك واسع(٤٦)

وقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا   لدى وكرها العناب والحشف البالي(٤٧)

يصف عقابا بكثرة الصيد وهنا شبه قلوب الطير رطبـة بالعناب لاشتراكهما في اللمعان والجمرة • وشبه قلوب الطير يابسة بالحشف البالي للاشتراك في اليبوسة واللون الاحمر الباهت • ان الكلام معقود على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة الا ان أحدهما لا يداخل الآخر في الشبه • كيف ولا فائدة لأن ترى العناب مع الحشف اكثر من كونهما في مكان واحد ، وكذلك لو فرقت التشبيه فقلت :

« كأن الرطب من القلوب عناب وكأن اليابس حشف بال » كونهما لم تر أحد الشيئين موقوفا فيالفائدة على الآخر(٤٨) •

ومثله قول المتنبي :

بدت قمرا وماست خوط بان   وفاحت عنبرا ورنت غزالا(٤٩)

فهنا تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء لا يقيم الترتيب فيها على نسق مخصوص غير توخي الوزن •

ومثل هذا قولك :

« زيد كالأسد بأسا ، والبحر جودا والسيف مضاء ، والبدر بهاء » لم يجب عليـك ان تحفظ هـذه التشبيهات نظامـا مخصوصا ، بل لو بدأت بالبدر وتشبيهه به في الحسن وأخرت تشبيهه بالأسد في الشجاعة

---

(٤٦) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٢ •

(٤٧) ابن المعتز كتاب البديع ص ٦٩ ، طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٨ نهاية الايجاز ص ٧ وكرها عشها ، العناب شجر كحب الزيتون أحمر ، والحشف أردأ التمر •

(٤٨) انظر اسرار البلاغة ص ١٧٧ •

(٤٩) نفس المصدر ص ١٧٨ •

كان المعنى بحاله(٥٠) ومثل هـذا التشبيه نسميه تشبيها مفردا ولو اشتمل على وجوه شبه كثيرة مفرقة ·

ب ـ مركب : وذلك كقول بشار بن برد :

كأن مثار النقـع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوي كواكبـه

عبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهي تعلو وترسب ، وتجيء وتذهب ، ذلك ان لها في حال احتدام الحرب ، واختلاف الايدي بها في الضرب ، اضطرابا شديدا وحركات مسرعة ، ثم ان لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوالا تنقسم بـين الاعوجاج والاستقامـة والارتفاع والانخفاض ، وان السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها في بعض ويصدم بعضها بعضا · ثم ان أشكال السيوف مستطيلة· ثم قوله «تهاوى» لأن الكواكب اذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في تهاويها تواقع وتداخل ثم انها بالتهاوي تستطيل أشكالها(٥١) ·

لم يقصد تشبيه الليل بالنقع والكواكب بالسيوف ، بل شبه صورة مثار النقع فوق الرؤوس مع مصاحبة الأسياف في حركاتها بليل تهاوي كواكبه وواضح ان الواو في أسيافنا هي واو المعية وليست لمحض العطف · انه تشبيه صورة خاصة حاصلة من اجتماع العناصر الاولى بصورة ممثلة من اجتماع العناصر الثانية · والليل المتهاوية كواكبه صورة متخيلة أفرزها خيال الشاعر وان كانت عناصرها مستمدة من البيئة والمدركات · وهكذا نحس ان الصورة هي مركب جديد يختلف عـن الليل بمفرده وعـن الكواكب بمفردها · انها صورة تداخلت فيها الألوان والحركات واصبح لها هوية جديدة تختلف عن كل مكون بمفرده ، تماما كالمركب الكيميائي فملح الطعام او كلوريد الصوديوم هو ذرة صوديوم مـع ذرة كلور ، الصوديوم قابل للاشتعال في درجات الحرارة العادية والكلور غاز وكلاهما سام · ان خصائص ملح الطعام تختلف عن كل مكون بمفرده · وكذلك

---

(٥٠) أسرار البلاغة ص ٩٦ ـ ٩٧ ·

(٥١) انظر : نفس المصدر ص ١٦١ والجمان ص ٢٢٣ وتلخيص المفتاح ص ٢٣٧ ·

الماء H_2O الذي هو عبارة عن اتحاد ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الأكسجين • الهيدروجين غاز وكذلك الأكسجين والاول مشتعل والثاني يساعد على الاشتعال بينا المركب الجديد سائـــل وهو يطفيء النار في درجات الحرارة غير العالية •
ان صورة الدم واضحة في مجرات النجوم وهو امر لم تحدث به دلالات الالفاظ ولكنه يلمح من صورة المركب •
ومن التشبيه المركب قول أبي طالب الرقي :

وكأن أجرام النجوم لوامعـــا   درر نثرن عـــلى بساط أزرق

شبه النجوم طالعات في السماء مفترقات مؤتلفات في أديمها وقد مازجت زرقة لونها بياض نورها بدر منثور على بساط أزرق[٥٢] •
ومنه قول الصنوبري :

وكأن محمر الشقيق اذا تصوب او تصعـد
أعلام ياقوت نشرن على رماح مـن زبرجد

لانك في هذا النحو ـ كما يقول الامام عبد القاهر ـ تحصل الشبه بين شيئين تقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم[٥٣] •
وكقول المجنون :

كأن القلب ليلـــة قيـــل يغدى   بليـــلى العامريـــة أو يراح[٥٤]
قطـاة عزهـــا شرك فباتـــت   تجاذبـه وقـد علق الجنـــاح

وواضح أنه يشبه القلب المضطرم القلق بقطاة لها وضع مخصوص وصورة معينة •

وكقول عنترة :

وخلا الذباب بهـا فليس ببارح   غردا كفعـــل الشارب المترنـــم
هزجا يحك ذراعـــه بذراعـــه   قدح المكب على الزناد الأجذم[٥٥]

---

(٥٢) أسرار البلاغة ص ١٤٦ •
(٥٣) نفس المصدر ص ١٥٤ •
(٥٤) كتاب الصناعتين ص ٤٢ •
(٥٥) سر الفصاحة ص ٢٩٣ • وهزجا مسرعا المكب المقبل على الشيء ، الاجذم : المقطوع •

انه تشبيه تمثيل · انه صورة بصورة ·

وقد فرع البلاغيون المسلمون التشبيه من حيث وجه الشبه فيه الى أنواع أربعة :

١ ـ تشبيه مفرد بمفرد ·

٢ ـ تشبيه مركب بمركب ·

٣ ـ تشبيه مفرد بمركب ·

٤ ـ تشبيه مركب بمفرد ·

أما التشبيهات الثلاثة الاولى فأمثلتها كثيرة خلا التشبيه الرابع الذي يقول ضياء الدين بن الأثير انه لم يجد عليه شاهدا غير قول ابي تمام في وصف الربيع :

يا صاحبي تقصيا نظريكما   تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه   زهر الربا فكأنما هو مقمر

فشبه النهار المشمس مع الزهر الابيض بضوء القمر[٥٦] ·

وسنضرب صفحا عن هذه التعريفات ، ونلتزم طريقا واحدا ينسجم والخط الرياضي الذي نهجناه ·

واذا كانت المعادلة الجبرية تعد بأعلى أس يرفع اليه اي مجهول فيها ، فاننا سنعد التشبيه مركبا اذا توافر فيه طرف مركب واحد على الأقل ·

تشبيه التمثيل في القرآن الكريم :

قوله تعالى : (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) يونس : ٢٤ ·

---

(٥٦) المثل السائر ج ٢ ص ١٥٢ ·

مثل الحياة الدنيا

س = (ماء أنزلناه من السماء ··· حصيدا)

نلاحظ ان المشبه به هو عشر جمل اذا فصلت وهي لوحات مختلفة نسق بعضها على بعض بترتيب زماني ومكاني ، ووجه الشبه حاصل من تكاملها ضمن هذا النسق · ان الشبه منتزع من مجموعها من غير ان يمكن فصل بعضها عن بعض وافراد شطر عن شطر ، حتى انك ـ كما يقول الامام عبد القاهر ـ لو حذفت منها جملة واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه[٥٧] · ولو شئنا التعبير الرياضي لقلنا ان س = ما دخل القوس جميعا ويعامل كوحدة واحدة وعلى ذات النسق ·

ان مثل الحياة الدنيا هو فلم يتكون من عشر لوحات :

اللوحة الاولى : الماء ينزل من السماء · هل بالامكان ان يؤخذ لقطة تصويرية لمنظر ماء ينزل من السماء ؟ والجواب حتما بالايجاب · واذن يؤخذ منظر هذا شأنه ولنعطه الرقم ١ ويلاحظ ربط انزال الماء بالله تعالى وبالتالي فالمشبه والمشبه به ينتميان الى ذات النظام ·

اللوحة الثانية : فاختلط به نبات الأرض · الفاء تفيد النسق والترتيب واذن فهذه اللوحة تنسق على اللوحة الاولى · هل بالامكان تصوير قطرات ماء السماء وقد داخلت نبات الأرض ؟ والجواب حتما بالايجاب · واذن يؤخذ منظر رقم ٢ ·

اللوحة الثالثة : أكل الناس : هل بالامكان أخذ لقطة مصورة لانسان يأكل فاكهة : نعم ·

اللوحة الرابعة : هل بالامكان أخذ لقطة مصورة لبعير يأكل عشبا : نعم · واذاً تؤخذ مناظر تمثل ذلك ·

اللوحة الخامسة : أخذت الأرض زخرفها · هل يمكن أخذ لقطة تصويرية لمنظر بدت فيه الأرض تكتسي خضرة وجمالا في الربيع ؟ نعم يمكن ذلك ·

---

(٥٧) اسرار البلاغة ص ٩٦ ـ ٩٧ · انظر في تفسيرها بيانيا : المثل السائر ج ٢ ص ١٣٩ ، وتلخيص المفتاح ص ٢٤٢ ·

اللوحة السادسة : هل يمكن أخذ لقطة مصورة لوجه الارض وقد بدا بالغ
التزيي والحسن ؟ نعم ٠

اللوحة السابعة : هل يمكن أخذ لقطة مصورة لجني المحصول او لموسم
الحصاد ووفرة الانتاج ؟ نعم يمكن ذلك ، بل أكثر من
ذلك يمكن تخيل لوحة فنيـــة للشعور النفسي الذي
يعكس الجذل والسعادة الضافية والثقة الكبيرة بمستقبل
رخي ٠

اللوحـة الثامنة : هل يمكن تصوير كارثة (كالزلزال او الفيضان) تحل
في الأرض في مكان ما ليلا ؟ نعم ٠

اللوحة التاسعة : هل يمكن تصوير الكارثة تحل بالأرض في مكان مـــا
نهارا ؟* نعم يمكن ذلك ٠

اللوحة العاشرة : هل يمكن تصوير وجه الأرض بعد الكارثة ؟ نعم يمكن
ذلك ٠

ان جماع هذه اللوحات والمشاهد هي مثل الحياة الدنيا ٠ وواضح انه كلما كانت اللوحات أكثر تحريكا للنفس واكثر اتصالا بالحياة كان الانطباع العام الذي تتركه أكثر وضوحا وأشد تأثيرا ٠ وواضح ان هذه اللوحات يستمدها كل واحد من بيئته بقدر غناها البيئي (من قوله تعالى كأن لم تغن بالأمس) وبقدر الجمال الذي يتراءى للعينين والنفس ٠ كما ان هذه اللوحات على تتابعها وفق نسق معين ينسق ثانيه عـــلى أوله وثالثه على ثانيه وهكذا ، الا انها متكثرة في اللون والنكهة والطعم والحركة والصوت تكثرا لا نهاية له ٠ فكثافة الماء النازل من السماء وصفته يتفاوت بتفاوت البيئات المختلفة ثم نوعية الارض والنبات والناس والأنعام وكل هذه الجزيئات لهي في التكثر الذي لا يعرف حدودا ٠

★ يذكر د٠ مصطفى محمود في تفسيره أن قوله تعالى ليلا أو نهارا دليل على كروية الارض اذ أن كل بقعة تكون ليلا بالنسبة الى مكان وتكون نهارا بالنسبة الى آخر في ذات الوقت ٠ وانظر : احمد محمود سليمان / القرآن والعلم ٠ ط ٢ دار العودة بيروت ١٩٧٤م ٠

وواضح أن كلما خطا العقل خطوات أفضل في عالم الجماليات ، وفي دنيا التصوير والفنون كان أقدر على التغلغل الى دنيا التمثيل في القرآن الكريم وأكثر استجابة لشفافيات الجمال واللطائف فيه ، وذلك ما يتفق وموافقة الاعجاز البياني لكل زمان ومكان • ان الحجة بالقرآن الكريم لا تكسب مع مرور الزمن الا ازديادا •

ان جمال المركب يفضل المفرد لأن الحس انما يدرك المركب من حيث هو شيء واحد ، فاما تفصيل تلك الأجزاء بعضها عن البعض ، وتمييز ما يكون داخلا في حقيقته عما يكون خارجا ، فذلك انما يتم بالعقل ، لان الحس كما يقول فخر الدين الرازي بما هو أشد اجمالا أقدم من شعوره بما هو أشد تفصيلا ، فانك بالنظر الاول انما يدرك المرئي ادراكا اجماليا ثم ترى التفصيل بعد ذلك ، وهكذا السمع فانك تقف من تفاصيل الصوت بان يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية على مالم تقف عليه بالسماع الاول(٥٨) ومن المعلوم ـ كما يقول فخر الدين الرازي ـ ان بادراك التفصيل تقع التفاضيل بين راء وراء وسامع وسامع(٥٩) •

وصدورا من مبدأ المركب والاجمالي فان وضوحا في منهج القرآن الكريم سيكشف لنا آفاقا كبيرة وسيجيب عن أسئلة كثيرة وقف عندها بعض البلاغيين والمفسرين •

ومن التشبيه المركب قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الجمعة : ٥

الشبه منتزع من احوال الحمار وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول ثم لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، فهو مقتضى امور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها الى بعض(٦٠) • وهذا فلم من منظرين : منظر الحمار لوحة رقم (١) ومنظر

---

(٥٨) نهاية الايجاز ص ٧١ •

(٥٩) نفس المصدر ص ٧٢ •

(٦٠) أسرار البلاغة ص ٩١ نهاية الايجاز ص ٦٧ •

الأسفار لوحة رقم (٢) والصورة مشتقة من نسق المنظر الثاني على الأول وتناولهما معا ٠

وقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه) النور : ٣٩ ٠

س = لوحة رقم (١) منظر سراب على قيعة ٠

أعمال الكافرين = فلما من لوحة رقم (٢) صورة ظمآن ينظر الى شبه الماء بلهفة ٠

لوحة رقم (٣) صوت ظمآن يمشي ملهوفا ٠

لوحة رقم (٤) صورة تتابع المشي بلا غناء ولا طائل ٠

لوحة رقم (٥) صورة الظمآن وهو ميت عطشا ٠

لوحة رقم (٦) تصور منظر الظمآن يلقى حسابه ٠

وقوله تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) النور : ٤٠ ٠

أعمال الكافرين أيضا

= فلما يتكون من الآتية :

(١) لوحة لظلمات في بحر عميق لنقل المحيط الهنهـــدي او الأطلسي مثلا ٠ وواضح أن التكثر في العمق والسعة لهو في اللامتناهي ٠ وكلما كان ذلك أقرب مـــن اللامتناهي كانــت الصـــورة أقــرب الى المقصود ٠

(٢) فوق البحر العميق موج رقم (١)
لقطة مصورة لهذا الموج مع
حركة الغشيان بالطبع ٠
(٣) لقطة مصورة مع التسجيل
لموج رقم ٢ الذي يعلوه ٠
(٤) لقطة مصورة لسحاب متصل
فوق موج رقم ٢ ٠

أسفل هذه الظلمات جميعا وفي قعرها تماما انسان اي انسان له مواصفات الانسان في السمع والبصر واليدين والرجلين ٠ ٥ لقطة مصورة له ٠ ثم ٦ لقطة مصورة له وهو يخرج يده وهي مغيبة في الظلام من غيره رؤية ٠ ان هذا الفلم بمجموعه هو حال الكافرين ٠ وواضح ان هذا التشبيه دليل على ظلمة نفوس الكافرين وعدم تبينهم لأي من تضاعيف الحق والحكمة في أي من التفاوت أو الأحوال ، بل ان الرين على قلوبهم شامل ٠ وان لاحظ لهؤلاء في الآخرة مهما قدموا من اعمال وتبرعوا بأموال ٠ وواضح ان صورة السراب لهي صحراوية المنظر بينما هذه شاطئية لتكون ذلك في الغنى البيئي للمسلم ٠ وسواء أكان الموج الثاني مستمدا من الحياة او متخيلا فان التخيل هو ايضا من المدركات وما يمكن للعقل البشري ان يتوهمه ٠ واذا ليس ضروريا ان تكون جزئيات الفيلم جميعا صورا واقعية بل لعل بعضها يكون انطباعات نفسية ولحظات ترقب او تحسب وهي اكثر جمالا من الرؤية الواقعة ٠ هذا وقد تبين ان هناك موجا ثانيا ولا يسير عموديا ولكن يسير أفقيا مع طول الموجة ٠ فان يكن فان ذلك في التدبر الذي ينبغي ان يعكف عليه العلماء المسلمون ويستخرجوا أسراره البيانية ٠ وقد روينا ان أحد البحارة الغربيين قد أسلم لما ان اطلع على تفصيلات هذه الآية ، لقرب معاناته مع جو الظلمات في البحار ٠

وقوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا

ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) الحديد : ٢٠ .

الحياة الدنيا   الكاف

= (لعب ... متاع الغرور)

المشبه به هو فيلم من لوحات ومناظر نسق بعضها على بعض بترتيب زماني ومكاني .

لوحة رقم (١) هل يمكن أخذ صورة او لقطة او لوحة لحالة من حالات اللعب ، ولنقل كرة القدم مثلا ؟ نعم .

لوحة رقم (٢) صورة للهو .

لوحة رقم (٣) صورة للزينة والتزيي والتأنق في المأكل والملبس .

لوحة رقم (٤) صورة للتفاخر والتباهي . مجسدة معبرة او نفسية مستوحاة .

لوحة رقم (٥) صورة للتكاثر في الأموال : منظر غلة شركة وهو ينمو كل يوم ويزداد .

لوحة رقم (٦) صورة تكاثر في الأولاد .

لوحة رقم (٧) صورة غيث مما يفيد الزراعة وينفع الموسم .

لوحة رقم (٨) صورة لنبات كان غب الغيث وبه تكون

لوحة رقم (٩) صورة للنبات وهو ييبس ويذبل .

لوحة رقم (١٠) صورة للنبات في آخر حالات الصفرة والذبول .

لوحة رقم (١١) صورة النبات وقد يبس وتبخر منه الماء وأصبح مهشما مفتتا .

لوحة رقم (١٢) صورة مستوحاة للآخرة والعذاب الشديد .

لوحة رقم (١٣) صورة لمناخ المغفرة والرضوان .

واضح الترتيب الزمني أيضا في هذا الفيلم المستمد من الحياة او هو الحياة . وفي وقت كان التشبيه المفرد يعطي لقطة فنية سريعة لموضوع

معين ، فان عامل الزمن وعوامل النمو والتحول تأخذ أبعادها في تشبيه التمثيل · وواضح ان وجه الشبه هو تبيان موقفين من الحياة : موقف من يرى الدنيا لعبا ولهوا وزينة فيتعلق بها ويلهيه الأمل حتى يلاقي وجه ربه وفي الآخرة عذاب شديد · وموقف من يرى الدنيا عرضا زائلا ونعيما غير مقيم فيأخذ للمآل أهبته ويتزود بزاد التقوى · وهذا ينتظره جو الرضوان والمغفرة ·

وقوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) البقرة : ٢٦١ ·

مثل الذين ينفقون اموالهـــم في سبيل الله = مثل (حبة ······· يشاء)

ويتضح هنا بروز عامل الزمن والتراخي الزمني في المشبه به · وهنا يأتي المشبه به فيلما من لوحات متعددة وبنسق معين والتشبيه هـــو مجموعها ·

لوحة رقم (١) وهي منظر حبة تنبت سبع سنابل · ولما كان زمان الانبات بطيئا فستكون هذه اللوحة غنية بأي لقطة كانت للنبتة وهي في اطوار النمو ·

لوحة رقم (٢) صورة مكبرة لجزئية في النبتة وهو عدد الحبات في كل سنبلة ·

لوحة رقم (٣) لوحة مستوحاة من مضاعفة ال ٧٠٠ مثل سواء أكان من عمل جهاد او زكاة او تكثر نفع · وهذه لا نهاية لتكثرها وغناها · وهي مجال استلهام واستيحاء · ولنتصور على سبيل التمثيل امرءا استطاع ان يهدي أحد الغافلين الى اعتناق الاسلام · ثم لنسمح للبعد الزمني ان يبرز ولنتتبع من ولد الرجل في الاجيال المتعاقبة وتكثر ذريته · فحتما سنجد ان عدد ٧٠٠ جائز ان يتضاعف في خلال مدة بسيطة ثم هذه المضاعفـــة تتضاعف أيضا وهلم جرا · وهكذا يجد من قدم في سبيل الله عملا ظنه بأجر قد ظل يتوالد أجورا كثيرة · وهكذا اعمال الناس في سبيل الله ،

منها ما يصل الى سبعة أضعاف ومنها الى مئة ضعف ومنها الى ٧٠٠ ضعف ومنها الى (٧٠٠)٢ ضعف ومنها الى (٧٠٠)٤ ومنها الى (٧٠٠)٨ وهكذا على تفاوت النماء والانتفاع اذ كل حبة بدورها من السبعمائة ستدور ذات الدورة ٠

والوقوف التي ينفق من ريعها على المصالح الاسلامية صورة أخرى غنية بالايحاء ولو أردنا ان نمثل الفيلم رياضيا لقلنا :

١ × ٧ = ٧

٧ × ١٠٠ = ٧٠٠

(٧٠٠)٢

(٧٠٠)٤

وهلم جرا مع المحافظة على نسق الترتيب ٠

ان صورة التكثر لأجر ما ينفق في سبيل الله لهي من سعة الغنى ما يضع المسلم في موقف من لا يستهين بالجهد الصغير يقدر عليه في سبيل الله ٠ ان النفع بهذا الجهد ليس مما تتبين آثار نتائجه في الحياة القصيرة ٠ وهذا ما يفسر قوله صلى الله عليه وسلم « من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » وقوله صلى الله عليه وسلم : « اتق النار ولو بشق تمرة » وقوله صلى الله عليه وسلم : « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » يقصد النبع ينفع الله به الناس والأنعام والنبات ويتضاعف أجر صاحبه وهو في داره نائم ٠

وقوله تعالى : (فمالهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) المدثر : ٥٠ ٠

صورتهم وهم معرضون عن الذكر = كأن (فيلما معينا)

هذا الفيلم يمثل أكثر من لقطة :

لوحة رقم (١) منظر حمر الوحش نافرة ٠

لوحة رقم (٢) منظر ارتسام الذعر على تصادمها ٠

هذه الحمر لفرط خوفهـــا وتعرضها للقسورة سواء أكان الأسد أم الصيادين ٠

وواضح ان الفيلم هنا يصور ملامح النفس + الحركة العمياء + أصوا تالذعر • انه الصوت والصورة لدرجـــة يكاد المرء يسمع مـــع التمثيل جلبة هذا النفار والذعر •

وقوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب : ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث) الاعراف : ١٧٦ •

مثل الذين كذبوا بآيات الله
كمثل = (الكلب في أحوال مختلفة)

انه فيلم من لقطتين :

١ ـ صورة كلب يحمل عليه (يزجر) .
٢ ـ صورة كلب لا يحمل عليه ولهاثه مستمر •

وهكذا فان تشبيه التمثيل يتيح الفرصة للحركـــة والتفاوت بينا التشبيه المفرد لا يعدو ان يكون صورة ساكنة لمنظر واحد ، او صورة ساكنة لمنظر واحد يشتمل على ألوان متعددة سواء ما كان منها قابلا للتصوير او قابلا للتصور •

وقوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتـــا ، وان أوهـــن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) العنكبوت : ٤١ •

لعل هذه الاية الكريمة تصح ان تكون موضع الالتقاء بين التشبيه المفرد وتشبيه التمثيل • وانها وان كانت تمثل أمرا واحدا فانهـــا في تشبيه التمثيل لأدخل وذلك لقوله تعالى (اتخذت) • ولو كان المشبه كبيت العنكبوت لكانت الصورة ساكنة وكان التشبيه مفردا •

واذا لم تكن المصطلحات لتعنينا اكثر من اعتنائنا بالنص والتعامل مع كل نص كما لو كان حياة قائمة بنفسها وكما لو كان وحدة واحدة هي نسيجة وحدها ، الا ان وجود الفعل «اتخذت» يجعلها أدخل في التمثيل • ان الاتخاذ لا يكون بالايجار حتما وانما تقوم أنثى العنكبوت بتهيئة البيت

واعداده والصبر على لأوائه • ولو أتحنا لعدسة الكاميرا ان تسجل كل هذه الخطوات لظفرنا بلوحات متعددة وتعاقب زمني كثير يفسره قوله تعالى «اتخذت» • وهو فرق ما بين الصورة الصامتة الساكنة والصورة المتحركة التي تضارع الحياة في نموها وتعاقب أحوالها •

وبالمقابل نستطيع من خلال هذا التفريق ان نقرر ان التشبيه في مثل قوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) الحاقة : ٧ وقوله تعالى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) القمر : ٢٠ • مفرد ذلك ان المشبه به في كل هو صورة ساكنة وان تداخلت اجزاؤها •

وقوله تعالى : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمي فهم لا يرجعون • او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين • يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير) البقرة : ١٧ـ٢٠ •

يأتي نسق الآيات القرآنية الكريمة في معرض تبيان معسكري الايمان والكفر •

١ ـ المتقون الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون ، والذين يؤمنون بما انزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم وما انزل من قبله وبالآخرة هم يوقنون •

٢ ـ الكافرون : سواء أنذروا أم لم ينذروا لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم غشاوة •

ثم يأتي تعريف المسلمين بالمنافقين الذين فيهم صفات من هذا المعسكر وصفات من ذلك أو هكذا يخيلون • وقد بين الله صفتهم : ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا : الآيات •

وحتى يزداد وضوح أمرهم للمسلمين أتى الله تعالى بصورة **لهم ممثلة** حتى تكون في النفس أوضح ٠

مثلهم (أي المنافقين) = (فيلما متكاملا) ٠

ولما كان مثل المنافقين يساوي الصورة المركبة او الفيلم الكامل ، فان الضمائر التي ستنسق في هذا الفيلم ستكون أمرا يتصل بهذا الفيلم وهذا التعريف لا علاقة له بالنفاق الا في الصورة المجملة ٠

لوحة رقم (١) منظر **رجل** أي **رجل** في **أي زمان** وفي **أي مكان يوقد نارا** ٠

ان هذه لوحة من الحياة يمكن اعادتها في كل زمان ومكان ٠ وليس للوحة هذه معنى في نفسها دون ان تكون عنصرا يدخل في التركيب الجديد ويتخلى عن ملامحه الاولى ٠

واذن فنحن ضد تفسير هذه الآية تفسيرا مجزءا ، اذ ليس من منهج التشبيه في القرآن الكريم ان ينظر الى جزئيات الصورة المركبة ٠ واذاً ، وانسجاما مع هذا المنهج نرى انه لا مكان لتأول تفسير النار بالهدى لان النار هنا هي حقيقة وليست مجازية[٦١] ٠ واذا جاز للبعض ان يفسروا النار بالهدى[٦٢] فان البعض الآخر من المفسرين وعلى رأسهم الزمخشري في الكشاف ذهب الى ان النار هي نار الفتنة والغواية ٠ واذا لم يكن من سند يشفع لتأول الأولين فليس من سند ايضا يشفع للآخرين ٠ ولا يحل هذا التأول الا ان تكون النار حقيقية كلوحة في فيلم متكامل انا ناظرون نسقه ٠

لوحة رقم (٢) صورة النار المتقدة وقد أضاءت ما حول المستوقد ٠

وواضح ان الايقاد يوحي بتغذية النار وتقويتها ٠

---

(٦١) انظر تفسير البيضاوي ٠

(٦٢) أنظر تفسير محمد عبده وفي ظلال القرآن ٠

وحتما سيكون ما حول المستوقد اناس كثيرون يستفيدون من الضوء في الرؤية ويستأمنون به من الحيوانات • والاستيقاد والاضاءة هي تسجيل متحرك فيه الاحوال المتتالية •

لوحة رقم (٣) ذهاب نورهم (والضمير هم) يعود الى من هم حوالي الاضاءة والمنتفعين بها • والنار اذا كانت كبيرة فان اضاءتها تصل الى قرى بعيدة وأماكن نائية فكيف من حواليها •

ان الذي يستوقد النار واحد والذين ينتفعون من الرؤية كثيرون • واذن فثمة لا يوجد معنى لعطف ضميرهم على المنافقين لان سياق الحديث هو عن مكونات الفيلم الذي يمكن ان يعاد في كل زمان ومكان وفي عيني كل راء وفي وضوح كل متوسم •

وهنا ايضا المعنى حقيقي ولا مجال لتفسير النور بالايمان في هـــذا الموضع بالذات ـ كما قد ذهب الى ذلك كثير من المفسرين[٦٣] •

لوحة رقم (٤) شدة الظلام في عيون الرائين وهو عدم قدرة شبكية العين على التكييف ما بين تقلص شديد في اضاءة كثيفة واتساع حدقـــة العين في غياب الضوء الغياب المفاجىء • وهنا يدخل التلوين والتعتيم في اظهار فنية اللوحة •

لوحة رقم (٥) وأضيف الى هؤلاء الحيارى في الظلام الشديد الذي قد عقب الاضاءة الشديدة : انسداد السمع وانحباس اللسان والعمى • وهؤلاء الناس قد بلغوا في التيه والحيرة حدا لا يستطيعون معه الرجوع الى معاشهم وأعمالهم • وهو التفسير ذكره الرازي في مفاتيح الغيب •

ان حال هؤلاء الناس الذين يمكن ان يكونوا في اي زمان ومكان[٦٤] وان يضاف اليهم كل انواع البلايا ـ اذ ان الله على كل شيء قدير ـ كما

---

(٦٣) الجمان في تشبيهات القرآن ص ١٣ •

(٦٤) ذكر الامام الطبري في جامع البيان أن هذه الصفات هي صفات المنافقين وتبعه كثير من المفسرين وقد بين الرازي في مفاتيح الغيب ان هذه صفة المستوقدين اذ لا نستطيع ان نقول ان للمنافقين نورا •

جاء عقب التشبيه الثاني في الآية التي تلت ـ هو الفيلم الذي يشبه مثل المنافقين ٠

وهكذا يكون تعريف المنافقين الذين يجهل الالمام بأحوالهم من قبل المسلمين حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم وقد بلغ في الألمعية والفراسة ما بلغ اذ يقول فيه ابن رواحة :

لو لم يكن فيـه آيات مبينـة كانت بداهته تنبيك عـن خبره

يقول عنه رب العالمين (وان يقولوا تسمع لقولهم) بفيلم مستمد من الحياة يمكن ان يتواجد في كل بيئة وفي كل زمان ٠ وان الضمائر جميعا في الآية لهي ضمائر الناس الذين يمكن ان يكونوا مادة الفيلم ولا مكان لتأول الضمائر بانها تعود للمنافقين ـ كما ذهب الكثيرون ـ اذ مـن البدهي ان لا يعرف المنافقون بالمنافقين وانما يعرف المجهول والخفي من خلال المعلوم والجلي ٠ وواضح ان وجه الشبه هو ان المنافقين ينتفعون ببعض المصالح الدنيوية من خلال مشاركتهم في المغانم وهروبهم مـن المغارم وهو أمر لا سبيل الى تفليته مالم تكن الأمة كلها مستنفرة للجهاد حتى ينكشف كل فرد ـ ولكن هذه المنافع سرعان ما تعقب كل ألوان البلايا المختلفة ٠ ونرى ان النار هنا للمنفعة وليست للايمان ونباعد ان يكون أن المنافقين قد ادركوا ايمانا يصدق ذلك قوله تعالى (وما هـم بمؤمنين) البقرة : ٨ ٠

ومثل المنافقين يشبه صورة اخرى مستمدة من الحياة ، فان تكن الآية الاولى الأرض الصحراوية هي مسرحها ونقصد البرد مع الليل مع غياب المطر لان المطر يطفىء النار ولأن الاضاءة ممتدة لمـا حواليها لأن الأشجار والجبال تحجب الرؤية فان مسرح الآية الثانية هي المناطق الماطرة ٠

مثل المنافقين = (فيلما متكاملا من لوحات كثر هي :)

= لوحة رقم (١) منظر مطر يصوب من السماء وذكر السماء هنا له دلالة بيانية يفسرها فنية الصورة ٠ ولسنا نرى ذكر السماء هنا توكيدا

لفظيا لصيب ـ كما ذكر بعض أئمة التفسير* ـ وانما نراها ضرورة متصلة بفنية الصورة ، اذ شتان ما هما : منظر مطرب يصوب ولو كان مثل عزالي الماء يهمي ولكن في أفق منكشف ورؤية واضحة وسحاب شفاف ، وهو امر ملاحظ في بعض الجهات حيث الرطوبة نسبتها كبيرة ، ومنظر مطر يصوب وكأنه متصل بالسماء اتصالا لا انكشاف له ولا انقطاع معه وذلك أدعى لتكون السحب متصلة والرؤية متعذرة والظلمة متصلة .

ان ذكر السماء هنا ليس ترادفا لفظيا أو تكرارا زائدا ، بل ان الاقتصاد اللغوي المكثف لهو سمة القرآن الكريم .

ان ذكر قوله تعالى (من السماء) بعد الصيب لهو تكثيف نون الظلمة المتصلة بصورة المطر من أعلاه ولهو الترجمة الفنية لظلال هذه الصورة . وواضح ان المطر كلما كان أكثر التصاقا بالسماء من سائر آفاقها وكلما كان أوغل في الارتفاع مع مصاحبة الظلام كان ذلك أدعى الى فنية الصورة وأقرب الى المراد .

لوحة رقم (٢) المنظر الاول يخيم عليه جو آخر كثيف شديد السواد كثير طبقات الظلام .

لوحة رقم (٣) المنظر الاول + الظلمات ويتخلله الرعد (الصورة والصوت) .

لوحة رقم (٤) لقطة للمناظر الثلاثة الاولى مندغمة في بعضها ويتخللها البرق .

هذه المناظر كلها هي مسرح الأحداث وهي مناخ التمثيل وتفاوتـه بين الرؤية والعتمة والاضاءة والتعتيم وتداخل عناصر كثيرة متفاوتـة الكثافة والسرعة والحركة والصوت .

★ بل ذهب بعضهم الى التوكيد على ان المطر هو السماء وليس من بخار ماء البحار والانهار كما ذهبت الحكماء بل ان هذا يرد قول الحكماء . وقد رد على استدلال الفخر الرازي هذا ابو حيان في البحر المحيط اذ بين ان ليس في النص ما يدل على ذلك وبين ان العرب كانت تقول : السحاب بنات البحر . وانظر في ذلك : الكشاف ومفاتيح الغيب .

أما لماذا قدم الرعد على البرق في النسق مع ان البرق يلوح قبل الرعد ؟ انه في مثل هذا المقام يتبين استخدام المفسرين لمعطيات عصرهم ، اذ يوردون في تفسير الرعد والبرق تفسيرات شتى كلها معطيات ثقافية جاوزها العصر(٦٥) . وما لم يكن هناك نص قرآني أو حديث للنبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي قد طويت له أبعاد الزمان والمكان ـ فان المسلم يجاوز المعطيات الثقافية لعصر دون آخر ، حسبما تزداد الصورة وضوحا ويقطع العقل البشري أشواطا على طريق النضج والتفسير العلمي . ان علينا ان نبدأ من حيث انتهى الناس ونتفرس فيما كشف المسلمون الاولون بصفاء نفوسهم واستعدادهم وان نتجاوز عن تصوراتهم التفسيرية اذا توافر الوضوح الأكثر والتناسق الأكبر . من هنا كان البيان عملية نامية تظل دائمة الحركة والغنى والتطور حتى توظف في خدمة النصوص توظيفا جماليا فتكشف أبعادا ما كانت لتفهم الا على مستويات من النظر والتدبر جديدة . وهو المنهج الذي علم عليه شهاب الدين الخفاجي حين قال : « فننظر في أقوالهم ، ونتأمل المأثور عنهم ، ونسلط عليه صافي الذهن ، ونرهف له ماضي الفكر ، فما وجدناه موافقا للبرهان وسليما على السبر ، اعترفنا بفضيلة السبق فيه ، وأقررنا لهم بحسن النهج لسبيله . وما خالف ذلك وباينه اجتهدنا في تأويله واقامة المعاذير فيه ، وحملناه على أحسن وجوهه ، وأجمل سبله ، ايجابا لحقهم الذي لا ينكر ، واذعانا لفضلهم الذي لا يجحد »(٦٦) .

ان الرعد والبرق يحدثان في وقت واحد (تقريبا) نتيجة احتكاك سحابتين احداهما سالبة الشحنة وأخرى موجبة . والماء في أحواله المتعددة وبخاصة بعد التبخر يكون كثير التأين وعند الاحتكاك يحدث تفريغ كهربائي يحدث صوتا وشرارة كبيرة قد تمتد . ولأن سرعة الصوت هي دون سرعة الضوء (٣١٤م/ث) والضوء ١٨٦٫٠٠٠ ميل (٣٠٠ ألف كم/ث) فان البرق يتراءى للناظر قبل الرعد . ثم ان الرعد وخاصة الرعد المتكثر من خلال عمليات الصدى لهو أدخل في جو التخويف كأن ظلام العين

---

(٦٥) أحكام القرطبي وتفسير الخازن وتفسير الطباطبائي والجلالين .

(٦٦) سر الفصاحة ص ١٦٨ .

يلتقي وظلام الرهبة والوحشة · زد على ذلك ان الرعد خوف كله بخلاف البرق الذي يكون خوفا ويكون طمعا ايضا قال تعالى : (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) الرعد : ١٢ · وعندما يحدث التفريغ الكهربائي ويحرق أناسي أو دورا او أشجارا ويكون مصحوبا بالرعد القوي يحدث من الفزع في النفوس ما يجعل أصابع القوم في آذانهم تقلل من خلخلات الطبقات الهوائية · واذا كانت الانامل وحدها هي التي تدخل الآذان ، الا ان المجاز المرسل هنا كان ابلغ من الحقيقة بسبب حرص القوم على ان يحموا طبلات آذانهم بكل ما يستطيعون من جهد وسد فراغ ، وهو أقرب لأن تكون الأصابع لا الأنامل هي التي تجتهد لتحول دون ذلك · وقوله تعالى حذر الموت قرينة الى أن الصواعق تحرق وتقتل وهذا ناتج عن التفريغ الكهربائي · ان تفسير الصواعق بانه شدة صوت الرعد – كما ذهب اليه بعض المفسرين[٦٧] – لا ينسجم ونسق الآيات القرآنية ، ودلالات الألفاظ · ان شدة الصوت قد تصم الآذان ، وتسد السمع ، وتصدع الجدران ، لكنها لا تميت الناس · ان هذه قرائن علمية ما كان أبينها للعالم المتدبر حتى في تفسيره للظواهر العلمية يكون على بصيرة وهدى · ان ترتيب الرعد قبل البرق لم يكن عطفا عشوائيا وانما هو كلام يترجم عن الحق ، ولا ينطق عن الهوى ·

وقوله « حذر الموت » ما كان أدله على ذات الحقيقة وأبعده عن التفسير المغاير · وواضح ان البعد الزماني والنضج العلمي هو الذي أتاح لنا هذا الوضوح في الرؤية وهكذا يظل البيان يوظف في خدمة القرآن الكريم سائر معطيات الحضارة واسرار اللغة وخير للمفسرين الأسلاف ان لو كانوا يحجمون عن بعض النقاط التي لا يرون دليلا ساطعا على ثبوتها ، اذاً لكانت هذه النقاط كلوحة العناصر الكيميائية تظل تحفز العلماء الى استهداء جديد ، ونظريات أكثر شمولا ، وأوضح تفسيرا · ان الفاظ القرآن الكريم لهي لبنات محكمة ، في بناء محكم ، في هندسة محكمة ، فان لم يتبين لنا سر فيها ، فخير لنا ان ننبه الى ذلك ، وان

---

(٦٧) تفسير الجلالين · ومن الرائع ان نجد سبقا عند النسفي مثلا حيث قال انها قصفة رعد تنقض معها شعلة من نار ·

يكون هذا في التحديات التي تدفعنـــا الى استشراف أفق جديد وتصور مناخات وقرائن مغايرة · ان آيات الرعد والبرق والصواعق والمشرقين والمغربين كان يمر بها بعض المفسرين مرورا لا يروي غلة ، ولا يشفي صدرا ، ولا يحمل على اقناع · بل ان النظريات العلمية التي كانت تتصدر اعمال باحثين مسلمين من علماء وفلكيين وجغرافيين ورحالة لم تكن لتنال حظها الاوفى من حيث التبين والوضوح في التفسير الكاشف والسياق المنسجم ·

واذا كان المشبه به مركبا وكانت الصورة تؤخذ بمجملها فمن الخطر أيضا ان تؤخذ جزئيات المركب لتكون ماهيات مستقلة ·

ان الذين ذهبوا الى تفسير الظلمات بالكفر والرعد بالوعيد ، والبرق بالبينات(٦٨) قد وقعوا في ربكة لم يستطيعوا ان يخرجوا منها · كيف يمكن ان يكون البرق بينات ، والبرق فيه الموت ؟ ثم ان هؤلاء لم يبينوا لنا كيف يكون رجع الحديث عن الكافرين في قوله تعالى (والله محيط بالكافرين) في وقت كان تبيان معسكر الكفر قد مضى تفصيله ، بينما النسق هنا هو في المنافقين(٦٩) · الحق أقول لقد حاولت تفسير القرآن الكريم في مطلع شبابي ، وكانت هذه الآية هي التي ربطت الريشة فام تجاوزها حراكا ·

ان منهج تشبيه التمثيل في القرآن الكريم يفسر كل هذا تفسيرا يستشعر حلاوته من واقعه · واذا كان المشبه به فيلما متكاملا وكانت الصورةَ المركبة المتميزة الهوية والمتفردة الشخصية يتعامل معها كوحدة تامة ، فان المطر والظلمات والرعد والبرق لهي الفاظ تحمل محمـــل الحقيقة ولا موضع للمجاز فيها · بل كيف لا تكون حقيقية ، او مستمدة من الحقيقة ، اذا كان ينبغي ان تكون في قوة التجربة العلمية حاضرة

(٦٨) انظر : تفسير الطبري والنسفي والخازن وجوهري طنطاوي وتفسير الجلالين ومحمد عبده وسيد قطب ·

(٦٩) انظر مفاتيح الغيب والبيضاوي والمنار ·

في كل زمان ومكان لتبقى الحجة بها قائمة ؟ ! ان هذا يوفر علينا التعلق بالجزئيات التي لا تكون وضوحا ٠

وفي الحديث عن الفيلم الذي يشتمل على لوحات المطر المتصل بالسماء الذي يتخلله ظلمات ورعد وبرق وصواعق وصور من يجعلون أصابعهم في آذانهم حذر الموت يأتي التعليق على منظر موقف من مواقفهم ـ والله محيط بالكافرين ٠ ان هؤلاء الذين يتعرضون لكل هذه الأهوال ليسوا المنافقين بالضرورة كما انهم ليسوا بالكافرين ضرورة ٠ انهم بشر ممن يخلق الله ، يعيشون في كل زمان ومكان ٠ انها صورة ممثلة مستمدة من الحياة او هي الحياة ٠ وهذا الأنموذج الذي عبره التشبيه عينة كالعينات الاحصائية تماما فيها كل ملامح الفطرة علاوة على ملامح التواجد في الأمكنة والأزمنة ، كي تبقى الحجة بهم قائمة يمكن التحقق منها والتثبت والاعادة ٠ في مثل هذا الموقف من الترقب والتحسب يأتي تعليقه تعالى (والله محيط بالكافرين) ٠ أما المؤمنون الذين في قلوبهم بعض خشية من الله ـ على أي ملة كانوا وأي دين اتبعوا ـ فهم في مثل هذه الأهوال مشفقون من الخوف لانهم يخشون ان يكون هذا غضبا الهيا ٠

حتى ان الكافرين الذين يأمنون مكر الله(٧٠) لأنهم ينسبون هذه الترتيبات الى عشوائية الطبيعة ـ ليشعرون في مثل هذه الرهبة ان قد احيط بهم وانهم لا يفلتون ٠ فكيف ثمة يكون موقف هؤلاء الناس الذين لا يأمنون مكر الله والذين يضرب بهم مثل التشبيه مع الترقب والخوف ؟ انه لا شك كبير كبير ٠

وهكذا فان ذكر الكافرين هنا جاء في جملة اعتراضية لا محل لها من الاعراب لانها تعليق خارجي على نسق الفيلم وتحرك لوحاته ومناظره ٠ وقد تنبه الى ذلك الامام البيضاوي في تفسيره فذهب الى تقرير هذا الرأي.

---

(٧٠) قال تعالى : (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) الاعراف : ٩٩ ٠ وهنا يتضح قيمة تفسير القرآن بالقرآن وهو امر قد سبق اليه الاسلاف وواضح في تفسير الامام الطبري وهو المنهج الذي ينادي به في المحدثين الدكتورة عائشة عبد الرحمن في التفسير البياني للقرآن الكريم وأمين الخولي في فن القول ٠

ويستمر الفيلم في الحركة : ان اجواء المطر والظلمات والرعد والبرق والصواعق والرهبة الضافية وتحسب الموت تضع الناس في موقف من يريد خلاصا ويطلبه بأي ثمن · فاذا أضاء لهم البرق ـ وهو ليس ضوء برق عادي ـ انه ضوء شديد اللمعان يكاد يخطف الأبصار ـ وهنا لا ينبغي التعلق بان يكون البرق مما يرى في البيئة اذ ان قوة هذه الظواهر ودرجاتها نسبية كما هي قوة الابصار والسمع وتحمل الذبذبات والضغوط ودرجات الحرارة ـ مشوا فيه الى حيث المغاور او الكهوف او جذوع الأشجار واذا أظلم عليهم وقفوا وقفـــة الترقب والحيرة · وان اراد الله تعالى ان يتم صور التنكيل والسخط بهؤلاء أذهب سمعهم وأبصارهم فكانوا في مسلسل لا يحسدون عليه ، فهو قدير على كل شيء ·

واذن يكون مثل المنافقين في اضطراب نفوسهم وفي ترقبهم وتحسبهم من غضب الله أشد هولا حتى من الكافرين الذين يستوي لديهم الوعد والوعيد ـ وهذا هو ما يحكيه الفيلم الذي يكون المشبه به ·

وقوله تعالى : (الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم) سورة النور : ٣٥ ·

يقرب الله تعالى الحقائق والماهيات مـن خـلال التشبيهات وضرب الأمثال · ان المثل على المثل يكون الدليل ويكون ذلك باقامة قناطر شبه على كليهما ويكون حشرهما عـلى صعيد واحد ينال فيـه الخفي جلاء والغامض وضوحا · وان هذا ليتيح للمقارنة بين امرين من طبيعة واحدة ونوع واحد · أن مثل الحياة الدنيا هو كمثل الماء الذي يؤول الى حصيد · وكأن العبرة في الحالين هي موضع التشابه اما تبيان ماهية الحياة من حيث هي خلايا وأنسجة وبلازما وفسيولوجيا وروح فليس مسلسل الماء هو الدليل عليها · واذن تكون الأمثال مستويات تفسر ركنا معلوما وجهة

معينة وتزيد المؤمن تعريفا دون ادراك لحد الأمر على سبيل العلم والاحاطة لان العقل قاصر ولأن بعدي الزمان والمكان يحتويانه ولا يحتويهما .

ان الله نور السموات والأرض الكاف
ومثل هذا النور = فيلما معينا هذه لوحاته :

لوحة رقم (١) المشكاة وهي الأنبوبة في القنديل .

لوحة رقم (٢) المشكاة فيها مصباح وهو الفتيل المتقد .

لوحة رقم (٣) الفتيل في زجاجة شفافة تشبه الكوكب الدري نسبة الى اللؤلؤ في صفائه ولمعانه .

وهنا نلاحظ ان قوله تعالى (الزجاجة كأنها كوكب دري) زيادة شرح وتفصيل في سياق عام فهي جملة اعتراضية لا محل لها من الاعراب .

لوحة رقم (٤) المصباح وقد اتقد بزيت من شجرة زيتون مباركة لا شرقية ولا غربية .

لوحة رقم (٥) صورة زيت يكاد يشتعل في درجات الحرارة العادية .

وهنا نتبين ان ليس بالضرورة ان تكون القوة الزيتية او الصفات الزيتية كما هي زيت الدنيا ، اذ ان الله تعالى قادر على أن يعيد تشكيل الماهيات والصفات وخصائصها الفيزيائية والكيميائية .

وهذه ايماءة بيانية الى أن شجرة الزيتون التي ضرب زيتها مثـــلا ليس ضرورة ان تكون من شجر الدنيا ، بل ان قوله لا شرقية ولا غربية ليؤكد ان هذا غير شجر الدنيا في صفاته وقوة اشتعاله . واذا أخذنا بالتفسير العلمي لكروية الارض وأن كل بقعة هي مشرق ومغرب في الوقت ذاته ، وهو تفسير قوله تعالى : (رب المشرقين ورب المغربين) الرحمن : ١٧ لنجد أن ذات التفسير ينسجم أيضا ، اذ ان قوله تعالى : (لا شرقية ولا غربية) ينبغي أن يكون بقعة على الأرض تكون في ذات الوقت شرقا وغربا ، بمعنى ان لو كانت الشجرة على الأرض لصح ان تكون شرقية وغربية في الوقت ذاته ، وهو رفد لتفسير كروية الأرض .

ان التشبيه الممثل ، وان استمد عناصره من الحياة ، الا انه ليس ضروريا ان يكون حياة . وقد وجدنا ان الليل الذي تتهاوى كواكبه صورة متخيلة وان كانت عناصرها من الحياة . وانسجاما مع هذا التصور فاننا نرى رأي معمر والحسن بان هذه الشجرة من شجرة الجنة ، ولا عبرة في توهين الرازي في مفاتيح الغيب لذلك بقوله : وهذا ضعيف لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهدوه . ونحن نقول : ان هذه صورة متخيلة يستطيع الانسان ان يتخيلها من خلال شبه عناصرها في المدركات البيئية . وهذا في الواقع يغنينا عن كثير من تأولات كثير من أسلافنا المفسرين والبلاغيين ممن ذهبوا في مثل نور الله تعالى كل مذهب فقالوا هو مثل نعته في قلب المؤمن . وقالوا نور الاسلام وقالوا هي قلب النبي صلى الله عليه وسلم وما ألقي فيه من النور[٧١] . وان الشجرة المباركة هي ذات النبي صلى الله عليه وسلم لأنه من أرض الحجاز التي لا تميل الى الشرق ولا الى الغرب[٧٢] وانها أرض الشام[٧٣] لأنها معتدلة المناخ .

ان الزيتونة المباركة ليست بالضرورة أن تكون من شجر الدنيا ، بل انها ليست منها لأنها تغايرها في الخصائص والصفات ، وهي أن تكون من شجر الجنة كما روي عن عكرمة والحسن أولى[٧٤] وذلك اكثر انسجاما ومنهج التشبيه في القرآن الكريم . وقال الحسن : هذا مثل وليست من شجر الدنيا اذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقية او غربية[٧٥] .

(٧١) تفسير الطبري ، والجمان ص ١٤٠ وانظر طائفة من هذه الاقوال في تفسير الرازي وتجد تفسيرا فلسفيا كما أثر عن أبي علي بن سينا وتفسيرا صوفيا عن أبي حامد الغزالي بل وتفسيرا رمزيا كما أثر عن كعب الاحبار . وانظر الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري .

(٧٢) المثل السائر ج ٢ ص ١٢٧ .

(٧٣) الكشاف والبحر المحيط والنسفي والبيضاوي والجواهر .

(٧٤) البحر المحيط وانظر الجمان ص ١٤٩ .

(٧٥) نفس المصدر وتفسير الطبري وتفسير القرطبي وتفسير الطبرسي وروح المعاني للالوسي .

لوحة رقم ٦ : منظر النور الحاصل من اجتماع هذه الهيئات جميعا ٠

لوحة رقم ٧ : منظر النور وقد ضوعفت قوته وشدة ايضاءته ٠

واذا كان هذا ممكنا فنيا من حيث فن التصوير الحديث والتحكم فيه وهو اشارة الى تطور فنون الاضاءة سابقة ـ فان الله تعالى قادر على ان يكثر صفاءه واضاءته الى مالا نهاية من حيث القوة وشدة الاضاءة ٠ ثم ان الربط بين آيتي النور والمساجد كان في الايحاءات التي يستحب معها التنوير وقت الصلاة ٠

هكذا يضعنا مسلسل التمثيل من خلال المدركات الدينية وعناصرها على عتبات الحياة العلوية ، وبذا تبين هذه الحياة حلقات يعرف أولها ولا نهاية لها في النسب والابعاد والتكثر ٠ ان مدركاتنا لهي العتبات الاولى للتذوق والعبور والنفاذ وهذا يستدعي أن نعيش الحياة الدنيا علما وجديدا وتفكرا في خلق السموات والارض عبادة ٠ وان ضرب الامثال وتنوعها في الغنى ليضع مدركاتنا في الضعف الذي يسلم بالعجز عن الاحاطة وفي ذات الوقت في الثقة التي تدفعها للاستشراف والفضول ٠ وهكذا يمسح رب العالمين عن ملكاتنا وادواتنا ومدركاتنا لنتذوق كي نبقى في اللهفة والرجاء والتشوق الى لقاء ربنا وكشف الغطاء فنعلم الامور علم كليات ويقين لا علم علة ومعلول ٠

وقوله تعالى : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ٠ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها قرار) سورة ابراهيم (٢٤ ، ٢٥) ٠

وهنا تشبيه تمثيل اذ لا يتم التشبيه الا من خلال قراءة الآية جميعا ٠

الكاف

مثل الكلمة الطيبة = فيلما ٠

هذا الفيلم يتكون من لوحات هي :

١ ـ شجرة طيبة الثمر ٠

٢ ـ منظر الشجرة مع تركيز عليها وهي متأودة الجذور ٠

٣ ـ منظر الشجرة مع تركيز على الفروع الممتدة في السماء ٠

٤ ـ مناظر متعددة للشجرة في فصول من السنة مختلفة ٠

وقوله تعالى بإذن ربها اشارة الى ان التشبيه تشبيه تمثيل وان المشبه به وان كان فيلما تكونه عناصر الحياة ومدركاتها الا انه ليس بالضرورة أن يكون الحياة ٠ واذن فالشجرة التي هذه خصائصها هي شجرة ممثلة استمدت عناصرها من المدركات وان الله تعالى قادر على أن تكون هذه الخصائص حين يشاء ٠ وهذا التفسير البياني يعفينا من التأول البعيد للظفر بالشجرة في الدنيا ٠ وما قيل في شجرة النخيل(٧٦) ومع التقائها مع هذه الشجرة الطيبة في صفات وخصائص كثيرة الا اننا سنظل نجزم موقنين أن ليست هي شجرة النخيل ٠ اذ ثبات الاصل أمر لا يعرفه شجر الدنيا ولا حتى شجر النخيل ٠ والاكل الدائم شيء لا يعرفه شجر الدنيا ولا حتى شجر النخيل ، حتى الليمون الدائم الاثمار ينور شهرا ويثمر آخر ٠

وأما أن تفسير التمر يؤكل شتاء فهو في التأول البعيد اذ دلالة الالفاظ واضحة وهي ان الشجرة هي التي تؤتي أكلها كل وقت وهو واضح وهو ما شدد عليه الفخر الرازي ٠

وهكذا فاننا سوف نعتم على شفافية الآيات وجمالياتها ان حاولنا أن نتعلق بما يقابل بعض ذلك في الدنيا ٠ وقد روينا عن ابن عباس رضي الله عنه ان هذه الشجرة ليست من شجرة الدنيا(٧٧) وهو امر يتسق مع المنهج الذي قد ترسمناه ٠

(٧٦) من ذلك : الكشاف وتفسير البغوي وتفسير النسفي وتفسير البيضاوي ، وتفسير القرطبي وتفسير ابن كثير وتفسير طنطاوي جوهري وانظر الجمان في تشبيهات القرآن ص ١٠٠ ٠

(٧٧) ذكره ابن كثير في تفسيره وانظر الجمان ص ١٠٦ ٠

اما ما يكونه وجه الشبه بين مثل الكلمة الطيبة وهذه الشجرة المباركة فلعله في الموقف الثابت الواضح الذي لا يتزحزح في الدنيا ولا ينال عدو منه زحزحة · ان المسلم الصادق في القول لهو في الثبات الذي لا يقلع · وقد جربت الشيوعية والتنصيرية تحويل مسلمين صادقين عن دينهم فما نجحوا في واحد ·

ان الذين هم في غطاء عن ذكر ربهم آن لهم أن يتبصروا ايحاءات هذه اللطائف المباركة · واذا كان هذا حال المسلم من حيث ثباته في موقعه فان التأييد الالهي لهو أكثر امتدادا واشد تثبيتا في الدنيا وفي الآخرة ناهيك عن الكلم الطيب يرفعه رب العالمين وتفتح له أبواب الارض والسماء ·

ومثل الكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض كأن لم تكن · وواضح ان الشجرة هي للتمثيل وليس ضرورة ان تكون الحنظل أو الكراث أو الثوم كما ذكر ذلك الفخر الرازي · ثم ان الحنظل نبات وليس شجرا · وهذا الدليل على ان كيد الكافرين ضعيف وهو يبور ·

وقوله تعالى : (ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) الفتح ٢٩ ·

مثل محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته من المؤمنين ·

ك = (صورة نامية يداخلها عامل التدرج والبعد الزمني) وهو لذلك تشبيه تمثيل ·

لوحة رقم ١ زرع أخرج وريقاته ·

لوحة رقم ٢ صورة للزرع وقد قوي ·

لوحة رقم ٣ صورة للزرع وقد امتد مع تركيز على العرض ·

لوحة رقم ٤ صورة للزرع وقد امتد مع تركيز على الطول والنمو الطولي ·

لوحة رقم ٥ صورة هذا الزرع وقد قرت به عينا صاحبه سواء أكانت الصورة بيئية أم نفسية ·

انها صورة منتزعة من البيئة الانسانية ، قائمة في كل زمان ومكان ٠ وان الذي يستطيع أن يتابع نمو البذرة الأولى من مراحل الضعف ويرى رسوخ هذه النبتة وقد تأودت منها الجذور وامتدت منها الساق والاوراق وضربت في العرض والغلظ – ليستطيع أن يدرك أن صحابة هذا النبي صلى الله عليه وسلم وان بدأوا بضعة نفر الا أن دولتهم ستمتد عرضا لتفتح بلادا كثيرة وتحوز مساحات شاسعة ، وستمتد طولا من حيث الاستمرار الزمني والامتداد التاريخي ، وقد كان ٠

ان الذين يتفكرون في هذه التشبيهات يمكنهم أن يحصلوا منها على ايماءات كثيرة وايحاءات ما كان أغناها ٠ وهكذا يستطيع المؤمن المقبل على ربه أن يبصر في آي القرآن الكريم ما لا يبصره أبناء بيئته وزمانه وذلك لأن غنى الايحاءات لا يكاد يتعلق بنهايتها خيال أو يحيط به فكر ٠

واذا لم يكن من نص على ان هذه النبتة ستحور ، فان هذه لتحليم بشارة على ان الاسلام ودولة الصحابة هما لا شك راجعان ، وأن الزبد الطافي على سطح الاحداث اليوم ينبغي أن لا يكون اكثر من طفاوة وشكان ما تتبدد ويعود الزرع قويا ملتفا ٠

هذه من قناطر التشبيه ومعادلاته في كتاب الله العزيز أتينا بهـــا على سبيل التمثيل لا الحصر ، وكان لنا عند كل منها وقفة مستأنية ٠ واذا كان من فضل في هذا المنحى في الدراسة ، فهو التعامل مع النصوص كما لو كانت حيوات مستقلة ضمن النسق العام ، وفي اطار المنهاج العام ٠ واذا كنا قد شعرنا بأنا ظفرنا الظفر الجمالي الذي يعرفه أهله ، فان هذا يغرينا بمزيد من الدراسة والتأمل والتدبر ، ومن قرع الباب فانه يوشك أن يفتح له ٠ نسأله تعالى أن يكون هذا في الايمان الذي حببه الينا وزينه في قلوبنا ٠

من الأمثلة السابقة وجدنا أن المعنى اذ أتى ممثلا فهو في الاكثر ينجلي بعد ان يحوج القارىء او السامع الى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة

في طلبه . وما كان منه ألطف ، كان امتناعه أكثر ، واباؤه أظهر ، واحتجابه أشد . ومن المركوز في الطبع ــ كما يقول الامام عبد القاهر ــ ان الشيء اذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق اليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى ، فكان موقعه من النفس أجمل وألطف ، وكانت به أضمن وأشغف[78] ، ويقول الامام عبد القاهر عن فوائد التمثيل : واذا نقلتها (النفس) في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب الى مايدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فأنت كمن يتوسل اليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت اذن مع الشاعر وغير الشاعر اذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عن الحجاب ويقول : ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت[79] .

وفي بيان تأثير التمثيل بعد ذكر الخبر ــ كما قد رأينا في الاخبار عن المنافقين وأعمالهم ثم رفد ذلك بالتمثيل في شبهين هما : المستوقد والصيب ــ يقول الامام عبد القاهر : فانا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر ، كما اخبر الله تعالى عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله (قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي) والشواهد في ذلك كثيرة والامر فيه ظاهر[80] . ان المعنى وان كان معلوما يقينيا ــ كما يقول فخر الدين الرازي ــ الا ان التمثيل بالمحسوس يفيده زيادة قوة ، اذ ان الف النفس مع الحسيات أتم من الفها مع العقليات ، فاذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عقبته بالتمثيل الحسي فكأنك قد نقلت النفس من المعنى الغريب الى القريب كقوله :

وليل كظل الرمح قصر طوله ... دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

فان ظل الرمح على حال متناه ، على ان التشبيه بالمشاهد المحسوس يزيد يقينا[81] ومثله ما قد وقفنا عنده من قوله تعالى : (كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه) .

---

(78) أسرار البلاغة ص ١٢٦ .

(79) نفس المصدر ص ١٠٩ .

(80) أسرار البلاغة ص ١١٢ .

(81) انظر : نهاية الايجاز ص ٧٥ وسبقه أسرار البلاغة ص ١١٤ .

وعلى ذلك فاطردت أمثلة تشبيه التمثيل في القرآن الكريم ، فعلاوة على العلم اليقيني كانت وجوه التمثيل في المعاني المختلفة ، بل وفي البيئات المتفاوتة ، تزيد النفس تعلقا ، وبه تشبثا . وقد بينا ان لكل نفس مع البيئة الخاصة تصورا ونكهة ومذاقا ، وسيكون لهذه الخصوصيات مع العلم مواقف ذاتية لا سبيل الى نسيانها أو التفلت منها(٨٢) .

التشبيه الضمني :

قال أبو تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي(٨٣)

تنعقد في هذا البيت مشابهة ضمنية بين عطل الكريم من الغنى وعطل المكان العالي من السيل . أما المشبه فهو دعوى غير قائمة في واقع العقل وانما هي موقف .

وأما المشبه به فهو قضية مسلم بها ، وهي أمر واقع يستطيع كل واحد في كل زمان ومكان ان يتأكد منه . وهنا يقيم الشاعر علاقات تخييلية بين الكريم والمكان العالي ، وبين الغنى والسيل . وهذه العلاقات غير موجودة في واقع العقل ، وانما أقامها الشاعر من خلال رؤيته الكاشفة للعلاقات بين الاشياء ، ومن خلال لمحة لأوجه شبه لا يراها العادي من الناس . ولو سلمنا جدلا أن القضية الاولى كانت من حيث البرهان صفرا وأن القضية الثانية كانت من حيث البرهان مئة بالمئة فواضح ان حشر القضيتين على صعيد واحد سيتيح للقضية الاولى أن تكون خمسين بالمئة وهو مكسب كبير على أي حال . واذا أخذنا بعين الاعتبار ان قلائل من الناس من يدققون في هذه

---

(٨٢) فباسط الكفين الى الماء سيتخيل في بيئة النيل من خلال النيل وفي بيئة الفرات من خلال الفرات وفي بيئة البحيرات العذبة من خلال البحيرات العذبة وفي بيئة جمع الامطار من الآبار . ثم ان لكل بيت طريقته في السقيا فمن كان ألف لساقية صغيرة فان التمثيل سيكون من خلال الساقية . وهكذا الكلب والحمار والعنكبوت مما مثل به من البيئة .

(٨٣) أسرار البلاغة ص ٢٤٥ والمثل السائر جـ ١ ص ٢٤ ، انظر كتابنا : أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة ص ٩٤ .

الأمور ويزنونها بميزان العقل ، وان الانسان هو عقل ووجدان معا علمنا ان بعض ايحاءات هذه المعاني سيبقى لائطا بالنفس . أضف الى ذلك ان القضية الأولى لا تولي نفسها للتجربة والكشف لأنها حالة نفسية وموقف ، فاذن تبقى هذه الروابط التخييلية تلح على القارىء أو السامع ما اتصل بهذه المعاني أو وصل اليها .

من هنا تبدو مضارعة الشاعر للفيلسوف او الصوفي من حيث الرؤية للعلاقات بين الأشياء ومن حيث استلهام تصور عام . فاذا ما كان الشاعر حزينا مثلا فانه سيحيل الوجود كله حزنا وبكاء من خلال نصوص تتماسك وعلاقات تخييلية أوجه الشبه فيها واضحة لا سبيل الى ردها ودفعها .

واذا ما كان الشاعر جذلا فان الحياة ستبدو من خلال المعادلات الجديدة سعادة تامة ، وجذلا ، وسرورا .

وليست الحياة أيا من هذين الموقفين ولكنها المزيج من التفاؤل والألم . من هنا كان خطر الانتقائية على الوجود ، وخطر اتخاذ موقف معين من خلال العاطفة وحدها . وهو ما نص عليه القرآن الكريم (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ، الاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

انهم يهيمون مع أودية العاطفة والهوى ويتخذون من الحياة موقفا مزاجيا بينا المؤمنون تظل الحياة في أعينهم كما ينبغي ان تكون من غير هوى ولا مزاج .

ولذلك أخرج أفلاطون الشعراء من جمهوريته المثالية لانهم من خلال انتقائه المعاني التخييلية يفسدون ما يبنيه الفلاسفة والحكماء من أبنية عقلية ومعان عقلية ، ويظلون بمنأى عن دائرة المناقشة والحجاج والتكذيب .

والمتنبي في قوله :

فإن تفق الأنام وأنـــت منهم ... فإن المســك بعض دم الغــزال

قد احتج لدعواه ، وبرأ نفسه من ضعة الكذب وباعدها عن سفه المقدم على غير بصيرة ، والمتوسع في الدعوى من غير بينة(٨٤) .

ومثله قول مثقال الواسطي(٨٥) :

ثـم حاولت بالمثيقيل تصغيـ ـري فما زدتني سوى التعظيم
كالذي طأطأ الشهاب ليخفى وهو أدنى له الى التضريم

نجد الشاعر لقف الكرة واعادها على غريمه عبر أوجه شبه أحالت المعنى الى ضده عبر مشبه به لا سبيل الى نقضه . وفي هذا يقول الامام عبد القاهر : ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمثل ، ولم تتصادف هذه الاشياء المتعادية على حكم المشبه ، الا لأنه لم يراع ما يحضر العين ، ولكن ما يستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤية ، بل بما تعلق الروية ، ولم ينظر الى الاشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة(٨٦) .

وفي بيان فضل المعاني التخييلية وامتداد التفاوت فيها ، وافتراقها عن المعاني العقلية يقول الامام عبد القاهر : ان الأشياء المشتركة في الجنس المتفقه في النوع تستغني بثبوت الشبه بينها وقيام الاتفاق فيها عن تعمل وتأمل في ايجاب ذلك لها وتثبيته فيها ، وانما الصنعة والحذق ، والنظر الذي يلطف ويدق في أن تجمع أعناق المتنافرات والمتباينات في ربقة ، وتعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشبكة ... ولا يقتضيان ذلك الا من جهة ايجاد الائتلاف في المختلفات(٨٧) ويضيف الامام عبد القاهر قوله : ولم أرد بقولي أن الحذق في ايجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها أصل في العقل ، وانما المعنى أن هناك مشابهات خفية يدق المسلك اليها ، واذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدر(٨٨) . ويقول : « فاذا مدت

---

(٨٤) أسرار البلاغة ص ١١٠ والمثل السائر ج ١ ص ٢٨ .
(٨٥) نفس المصدر ص ٣٨ .
(٨٦) أسرار البلاغة ص ١٣٨ .
(٨٧) نفس المصدر ص ١٣٦ .
(٨٨) نفس المصدر ص ١٣٩ .

الحلبات لجري الجياد ، ونصبت الأهداف لتعرف فضل الرماة في الابعاد والسداد ، فرهان العقول التي تستبق ، ونضالها الذي تمتحن قواها في تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط • ولن يبعد المدى في ذلك ولا يدق المرمى[٨٩] وهناك يجد الشاعر سبيلا الى أن يبدع ويزيد ، ويبدي في اختراع الصور ويعيد ، ويصادف مصطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعاني متتابعا ويكون كالمغترف من عد لا ينقطع ، والمستخرج من معدن لا ينتهي • وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المداني قيده ثم هو في الاكثر يسرد على السامعين معاني معروفة ، وصورا مشهورة ، ويتصرف في أصول وهي ان كانت شريفة فانها كالجواهر تحفظ أعدادها ، وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى ولا تزيد ، ولا تربح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الرائقة لا تمتع بجني كريم وهذا قول من قال «خير الشعر أكذبه » فهذا مراده لان الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصا وانحطاطا وارتفاعا بأن ينحل الوضيع صفة من الرفعة هو منها عار ، أو يصف الشريف بنقص وعار • وانما لان الصفة انما تمد باعها وتنشر شعاعها ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتســاع والتخييل[٩٠] ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والاغراق في المدح والذم والوصف والنعت والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والاغراض[٩١] •

وبهذا يكون التمثيل الضمني كما يقول الامام عبد القاهر : ••• وهل تشك في انه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق ، وهو يريك للمعاني الممثلة بالاوهام شبها في الاشخاص الماثلة ، والاشباح القائمة ، وينطق لك الاخرس ، ويعطيك البيان من الاعجم ، ويريك الحياة في الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين[٩٢] ؟!

---

(٨٩) أسرار البلاغة ص ١٣٦ •

(٩٠) نفس المصدر ص ٢٥١ •

(٩١) نفس المصدر والصفحة •

(٩٢) نفس المصدر ص ١٣٦ •

وأمثلته في الشعر كثيرة من ذلك قول أبي تمام :

وطـــول مقـــام المـــرء في الحيمخلـــق
لـــديباجيتـــه فـــاغترب تتجـــدد
فانـــي رأيـــت الشمس زيـــدت محبـــة
الى الناس ان ليست عليهم بسرمـد(٩٣)

وقوله :

نقـــل فؤادك حيث شئـــت من الهـــوى
مـــا الحـــب الا للحبيـــب الأول
كـــم منـــزل في الأرض يألفـــه الفتـــى
وحنينـــه أبـــدا لأول منـــزل(٩٤)

وقوله :

واذا أراد الله نشـــــر فضيلـــــة
طويت أتاح لهـــا لســـان حســـود
لولا اشـتعال النـــار فيمـــا جاورت
ما كان يعرف طيب عـــرف العـــود(٩٥)

وقوله :

لا تنكـــروا ضربـــي لـــه من دونـــه
مثـــلا شرودا في النـــدى والبـــاس
فـــالله قـــد ضـــرب الأقـــل لنـــوره
مثـــلا مـــن المشكـــاة والنبراس(٩٦)

وقول ابن الرومي :

كـــل امـــرىء مـــدح امـــرأ لنوالـــه
وأطـــال فيـــه فقـــد أســـاء هجـــاءه

---

(٩٣) المصدر السابق ص ١١٨ .

(٩٤) نفس المصدر ص ١١٢ .

(٩٥) نفس المصدر ص ١٠٨ .

(٩٦) اسرار البلاغة ص ١٠٥ المثل السائر ج ١ ص ٢٣ .

لو لم يقدر ثم بعد المستقى
عند الورود لما أطال رشاءه(٩٧)

وقوله :

عدوك من صديقك مستفاد
فلا تستكثرن من الصحاب

فان الداء أكثر ما تراه
يكون من الطعام أو الشراب(٩٨)

وأما منهج القرآن الكريم في التشبيه الضمني فهو تشبيه مئة بالمئة من التوكيد ومن ثم فان المشبه به الذي يأتي ضمنا لا يخسر من قوته شيئا بل يكاد يكون التوكيد اللفظي والمعنوي للمقدمة الاولى . ان البشر من خلال مواقفهم مختلفون ومن ثم فان مقدمة كل واحد في التشبيه الضمني لهي دعوى قد تكون عامة وقد تكون شخصية او قومية او نسبية . ان علم الناس بالقضايا المختلفة لهي جزئية لانهم لا يمتلكون بعدي الزمان والمكان . وجائز ان يقوم الشاعر بمدح سيف الدولة مثلا ويرفعه الى السماء من حيث مجاوزة الاطراء ثم يتكشف له فيما بعد ما يسوء . فأين ثمة تكون المقاييس والأحكام ؟

ان الله تعالى الذي يحيط بالمكان والزمان ليتنزل بالمقدمات تنزلات الحق الذي لا جمجمة فيه واذا فان مقدمات التشبيه الضمني بالقرآن لهي أحكام وتقرير . واذا كان المشبه حكما فان المشبه به لا يناله شيء من النقصان وقدحشر مع المشبه على ذات الصعيد ، انه زيادة الشرح والايضاح والقوة تماما كما في قوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) يس ٧٨ ، ٧٩ .

فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على اعادة الخلق ، مستغنية بنفسها كما يقول ابو هلال العسكري - عن الزيادة فيها ، لأن الاعادة

(٩٧) المثل السائر ج ١ ص ٢٤ .
(٩٨) نفس المصدر ص ٢٥ .

ليست بأصعب في العقول ابتداء[99] ، ثم قال تعالى : (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون) يس : ٨٠ · فزادها شرحا وقوة لأن من يخرج النار من أجزاء الماء ، وهما ضدان ، ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه[100] ·

هذا لدى المسلم المصدق المستيقن أما الكافر والملحد والدهري فسيكون تصديقه بالمقدمة الاولى تصديقا مشوبا بالتلكؤ والتردد ولكن المشبه به سيكون من الوضوح الذي لا يستطيع معه الا التسليم والاذعان · ومن التشبيه الضمني في القرآن الكريم قوله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) الحجرات : ١٢ ·

هنا شبه رب العالمين ضمنا مغتاب أخيه المسلم بمن يأكل لحمه وهو جيفة ، واذا كان الناس لا يناقشون في كراهية المشبه به ، فعليهم أن يسلموا بكراهية المشبه ·

ومثله قوله تعالى : (واغضض من صوتك ان انكر الأصوات لصوت الحمير) لقمان : ١٩ ·

هنا شبه رب العالمين ضمنا الصوت المنكر بأصوات الحمير · واذا كان المشبه به في الوضوح بما يسلم به ولا يناقش ، فينبغي ان يسلم بالمشبه ·

ونلاحظ ان هذا النمط من التشبيه الضمني يكون في المواقف سواء من حيث التصديق أو عدم التصديق أو من حيث مقاييس الأخلاق وضوابط الشخصية ·

الغموض الفني :

واذا كان من المركوز في الطبع أن الشيء اذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق اليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى ، وموقعه من

---

(٩٩) كتاب الصناعتين ص ٢٤ ·

(١٠٠) نفس المصدر والصفحة ·

النفس الطف ـ أفيلزم هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضا ـ مشرفا له وزائدا في فضله ؟ فالجواب كما يقول الامام عبد القاهر : اني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب ، وانما أردت القدر الذي يحتاج في نحو قوله : فان المسك بعض دم الغزال ، فانك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك الا أن تشقه عنه(١٠١) ٠

وأما التعقيد فانما كان لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع الى أن يطلب المعنى بالحيلة اليه من غير الطريق ، كقوله (المتنبي) ٠

ولذا اسم أغطيـة العيـون جفونهـا
مـن أنهـا عمـل السيوف عوامـل

وانما ذم هذا الجنس لانه يحوجك الى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله(١٠٢) ٠ وانما يزيدك الطلب فرحا بالمعنى وانسا به وسرورا بالوقوف عليه اذا كان لذلك أهلا ، فاما اذا كنت معه كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمـة ويخاطر بالروح ثـم يخرج الخرز فالامر بالضد مما بدأت به(١٠٣) ٠

التشبيه المقلوب :

ومن استطالة الدعوى في اتخاذ المواقف المبالغة ، والمغالية ، الزعم أن الصفة في المشبه هي الاصل وان المشبه به انما هو فرع يستمد منها ، ويتكيء عليها ٠

من ذلك قول أبي تمام :

خلـق أطـل مـن الربيـع كأنـه
خلـق الامـام وهديـة المتيسـر(١٠٤)

---

(١٠١) اسرار البلاغة ص ١٢٨ ٠
(١٠٢) نفس المصدر ص ١٢٩ ٠
(١٠٣) نفس المصدر ص ١٣٠ ٠
(١٠٤) المثل السائر ج ٣ ص ١٢٢ ٠

فخلق الامام (المأمون) أصل يستقي منه الربيع ويحكي أخلاقه ، ومن يكون الأصل ومن يكون الطارىء المأمون أم الربيع ؟ وهنا تتضح المغالاة في قلب التشبيه وتغييره عن أصله ٠

ومن ذلك قول البحتري في مدح المتوكل (من وصف البركة) :

كأنهـــا حـــين لجـــت في تـــدفقها
يـــد الخليفـــة لمـــا ســـال واديها[١٠٥]

يد الخليقة المشبه به وجريان البركة المشبه ، فمن يكون الاصل ومن يكون الطارىء ؟ انها انتقائية الشعراء !

ومن ذلك قول القاضي التنوخي :

وكـــأن النجـــوم بـــين دجـــاه
سنـــن لاح بينهـــن ابتـــداع[١٠٦]

كأن السنن هي الأصل والنجوم فرع ، وعكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة بالنور ٠ قال صلى الله عليه وسلم « أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها »[١٠٧] ٠

ومن ذلك قول أبي طالب الرقي :

ولقـــد ذكرتـــك والظـــلام كأنـــه
يـــوم النوى وفؤاد مـــن لم يعشق[١٠٨]

وقول ابن بابك :

وأرض كأخـــلاق الكريـــم قطعتهـــا
وقـــد كحل الليـــل السماك فأبصرا[١٠٩]

---

(١٠٥) المصدر السابق ص ١٢٧ ٠

(١٠٦) سر الفصاحة ص ٢٢٩ واسرار البلاغة ص ٢٠٧ ٠

(١٠٧) أسرار البلاغة ص ٢٠٩ ٠

(١٠٨) نفس المصدر ص ٢١٠ ٠

(١٠٩) نفس المصدر ص ٢١٣ ٠

فأصبح الكريم الطارىء أصلا ، والأرض التالدة فرعا ·

ومثله ما كتب الصاحب الى القاضي أبي الحسن (الجرجاني) :

يـــا أيهـــا القاضي الـــذي نفسي له
مـــع قرب عهـــد لقائـــه مشتاقـــه
أهديت عطـــرا مثـــل طيب ثنائـــه
فكأنمـــا أهـــدي لـــه أخلاقـــه(١١٠)

فأخلاق أبي الحسن أصيلة وطيب العطر طارىء ·

وقد تبينا أن التشبيه في القرآنالكريم كان معادلات متساوية تساوي ركبتي البعير ، ولا غرو في ذلك ، فان آيات القرآن الكريم كانت معادلات بين النص المسطور وبين النص المنظور ، معادلات بين العوالم الالهية وبين المدركات البيئية · انها عبور للحقائق والأسرار والغيب ومقاصد الشرع عبر قناطر اللغة من المجاز والتشبيه وتصريف الأمثال وسرد القصص وسوق العبر والدعوة الى النظر والتأمل والاستدلال ·

الاستعارة :

التشبيه من حيث اكتماله ضربان :

١ ـ تشبيه تام : وهو ما ذكر فيه المشبه والمشبه به ·

٢ ـ التشبيه المحذوف : وهو ما ذكر فيه أحد طرفي التشبيه ويسمى « استعارة »(١١١) ·

والاستعارة لغة مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الاشياء ، ولا يقع ذلك الا منشخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة احدهما من الآخر شيئا(١١٢) وعرفها ابو الحسن الرماني فقال : هي تعليق العبارة على غير

---

(١١٠) اسرار البلاغة ص ٢١٦ ·

(١١١) تلخيص المفتاح ص ٢٩٥ والتعريف للسكاكي ·

(١١٢) نفس المصدر ص ٧٧ ·

ما وضعت في أصل اللغة على جهة النقل للابانة[١١٣] والجمهور على أنها مجاز لغوي بمعنى أنها لفظ استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة[١١٤] .

مثال : قال المتنبي في وصف سيف الدولة :

ولـــم أر قبلي من مشى البحر نحـــوه
ولا رجـــلا قامت تعانقـــه الأسد[١١٥]

لو تأملنا لفظة البحر هنا وسألنا : هل لفظة البحر هنا هي ما تدل عليه في أصل اللغة ؟ بكلام آخر : هل البحر في البيت هو مجتمع الماء ؟ واذا كان كذلك فهل يمشي البحر ؟ وما ثمة يكون المعنى . أما أن البحر يمشي فذلك لا مراء فيه فالبحر يأخذ من اليابسة باستمرار ، والأنهار تأخذ من اليابسة . وها هي الموانيء الحديثة تصنع في البر ثم يلحق بها البحر . ومن حيث النحو فان السياق يصح أن لو مشى البحر أم لم يفعل . واذاً يبقى شيء فوق النحو يقرر معنى البيت الا وهو البيان .

ترى هل أراد المتنبي ان يقول انني لم ار أحدا قبلي مشى مجتمع الماء نحوه ؟ وواضح ان ذلك لا يفي بتصور محكم .

واذاً يكون البحر هنا شيئا آخر غير ما وضعت له لفظة البحر في دلالة اللغة . ان لفظة البحر هنا مجازية وتعني الرجل الكريم .

ان مبدأ الاقتصاد في اللغة يحتم ان تواجه الثروة اللغوية من المفردات كل الوان الجدة والا لاقتضى كل معنى جديد لفظة جديدة ، وهذا مالا سبيل اليه . واذن تلجأ اللغات الى الاستعارة . فاستعار المتنبي لفظة البحر بدلالتها التي قد وضعت له في أصل اللغة وهو مجتمع الماء الكبير ، واستخدامها في بنائه استخداما فنيا . ان البحر يمنح القريب اسماكا ولآلىء وأملاحا ويرسل للبعيد سحائب . انه مثل أعلى في الجود .

---

(١١٣) سر الفصاحة ص ١٣٤ .

(١١٤) التفتازاني على التلخيص ص ٢٦٩ وهو تعريف الاستعارة عند البلاغيين الغربيين. أنظر: The Lively Rhetoric, P. 235.

(١١٥) أسرار البلاغة ص ٢٨٢ .

لقد نظر المتنبي في ممدوحه فأراد ان يتلطف للتعبير عنه بشيء فيه صفة الجود ظاهرة لا سبيل الى دفعها ، فحين أراد ان يقول من مشى الكريم نحوه ، قال من مشى البحر نحوه · وواضح ان البحر هنا مجازية بمعنى الكريم ، وهي المشبه به في الكرم · والذي يحدد مجازية اللفظة هو السياق وطبيعة المقام وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين الا اذا كان المتصفح للكلام حساسا يعرف وحي طبع الشعر وخفي حركته التي هي كالخلس وكمسرى النفَس في النفس(116) ·

وبعد هذه الاستعارة للفظة للدلالة على الكريم تعود اللفظة لتظل تدل على البحر من حيث هو مجتمع الماء الكبير · ولانه قد حذف المشبه وصرح بالمشبه به فالاستعارة تصريحية(117) ·

ولفظة الاسد هنا هي مجازية ايضا اذ لا معنى ان تقوم الاسد من حيث دلالتها في أصل اللغة وهي السباع في تقبيل سيف الدولة · وواضح انه اريد بالسباع هنا قادة سيف الدولة الشجعان · فاستعيرت لفظة الاسد لتحقق الشجاعة فيها بوضوح لتؤدي معنى جديدا يقرره المتنبي في بنائه الفني · وفيما سوى هذا الاستخدام الخاص الذي أخرج اللفظة عن حقيقتها فان لفظة الأسد تعود لتؤدي دورها الذي قد اصطلحت عليه في اللغة ·

وواضح ان العلاقة بين الشجعان والأسد هي المشابهة وان قد حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ·

مثـال :

قال الحجاج بن يوسف الثقفي :

« اني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها واني لصاحبها ، وكأني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى » وذلك بسبب من تخلفهم عن بيعة عبد الملك بن مروان(118) ·

---

(116) أسرار البلاغة ص ٢٨٣ ·

(117) تلخيص المفتاح ص ٢٩٥ ·

(118) المثل السائر ج ٢ ص ٩٨ ·

ان لفظة أينعت في هذا السياق ان لو وضعت فيما ينبغي أن توضع فيه من حيث حقيقة اللغة لكانت ثقلت ٠ والمعنى في أصل اللغة : اني لأرى رؤوسا قد ثقلت ٠ وواضح ان العلاقة بين الثقل والينـاعـة هي المشابهة ٠ وهكذا حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

ان الثمرة اذا أينعت تكون على وشك السقوط ومن ثم فهي في أعلى صفة الوهي والتهافت أكثر وضوحا ، كما ان البحر اكثر دلالة على الكرم والأسد اكثر دلالة على الشجاعة ٠

أما ما يذهب اليه من اجراء الاستعارة في الرؤوس وانها المشبه والثمار هي المشبه به المحذوف والمكنى عنه بشيء من لوازمه وهو اينعت فيتنافى وفلسفة المجاز في اللغة ٠ ان اللفظة تستعار من حيث مدلولها في حقيقة اللغة لتؤدي معنى خارجا عن الحقيقة في سياق معين ودلالة معينة ثم تعود بعد ذلك لتمارس وظيفتها في حقيقة اللغة ٠ لفظة رؤوس ليست هنـا مجازية بل هي أوردت مورد الحقيقة واذن فلا استعارة فيها ٠ يقول الامام عبد القاهر : الاستعارة ان تريد تشبيه الشيء بالشيء ، ان تفصـح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه ٠ (دلائل ص ٤٥) ٠ وقد أكد هذا المعنى : القزويني حيث قال : « ودليل أنها مجاز لغوي : كونها موضوعة للمشبه به لا للمشبه »(١١٩) ٠ وضياء الدين بن الأثير حين قال : ان الاستعارة هي ما ذكر فيه المشبه به دون المشبه(١٢٠) ٠ ويقول الامام عبد القاهر : « اعلم ان الاستعارة في الجملة ان يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في ذلـك الأصل(١٢١) ٠

(١١٩) تلخيص المفتاح ص ٢٦٩ ٠
(١٢٠) المثل السائر جـ ٢ ص ٧١ ٠
(١٢١) اسرار البلاغة ص ٢٩ ٠

وينبغي أن يكون مسوغ لاستخدام الاستعارة في اللغة حتى يفضل المجاز الحقيقة . وقد عرف أرسطو الاستعارة بأنها قوة وضع الاشياء تحت المجهر وقال ان الاستعارة سمة العبقرية ، ذلك لانها تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا ، وتوجب له بعد الفضل فضلا كما يقول الامام عبد القاهر(١٢٢) . ومن خصائصها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، وانك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس المبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية(١٢٣) . وهي موضع لا يتبين سره الا من كان ملتهب الطبع ، حاد القريحة(١٢٤) . وكقول الامام عبد القاهر : فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله او كله رمزا أو وحيا وكناية وتعريضا وايماء الى الغرض من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر وأدق النظر ، ومن يرجع من طبعه الى ألمعية يقوى معها على الغامض ، ويصل بها الى الخفي(١٢٥) .

والاستعارة تكون في الاسم مثل : كان الشباب مطية الجهل(١٢٦) .

والكلام في أصل اللغة : كان الشباب طريق الجهل .

طريق : المشبه

مطية : المشبه به

وواضح ان المطية أقرب الى الوضوح بسبب من كونها في الاحياء والاستعارة تصريحية .

وتكون في الفعل مثل :

أخبرتني أسارير وجهه بما في ضميره(١٢٧) .

وأصل الكلام في اللغة : دلتني .

---

(١٢٢) المصدر السابق ص ٤١ .

(١٢٣) نفس المصدر والصفحة .

(١٢٤) دلائل الاعجاز ص ٢٩٣ .

(١٢٥) نفس المصدر ص ٢٩٦ .

(١٢٦) أسرار البلاغة ص ٤٦ .

(١٢٧) نفس المصدر ص ٥٣ .

الدلالة : المشبه

الاخبار : المشبه به

ويفضل الاخبار الدلالة بفضل انتمائه الى الانسان الذي ينقل الخبر ، فهو فيه فضل حياة ، على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

وفي الحديث : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها »(١٢٨) ٠

وأصل الكلام في اللغة :

كلما سمع هيعة ذهب اليها ٠

ذهب : المشبه

طار : المشبه به ٠

ويفضل المشبه به المشبه بسبب من اتصاله بالطيور وهو أمر واضح الحياة والخفة على سبيل الاستعارة التصريحية ٠ ومثله قول المتنبي :

نثرتهم فـوق الاحيدب نثرة   كما نثرت فوق العروس الدراهم(١٢٩)

الكلام في أصل اللغة : فرقتهم ٠

فرقتهم : المشبه ٠

نثرتهم : المشبه به

ويفضل نثرتهم فرقتهم في أن النشر فيه قوة القبض ثم قوة التفريق ، على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

الاستعارة من حيث وجه الشبه : عقلي وتحقيقي ٠

الاستعارة العقلية :

وهي الاستعارة التي تقوم على مشابهة ويتهدى اليها باعمال العقل ٠

---

(١٢٨) نفس المصدر والصفحة ، تلخيص المفتاح ص ٢٧٥ ٠

(١٢٩) نفس المصدر ص ٥٤ ٠

كقوله تعالى (واتبعوا **النور** الذي أنزل معه) ٧/١٥٦ ٠

شبه الاسلام بالنور :

الاسلام : المشبه

النور : المشبه به / على سبيل الاستعارة التصريحية والعلاقة بين الاسلام والنور هي شبه عقلي ٠

وكقوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) ١/٥ ٠

شبه الدين بالصراط ٠

الدين : مشبه

الصراط : مشبه به / على سبيل الاستعارة التصريحية والعلاقة بين الدين والصراط شبه عقلي ٠

أصول الاستعارة العقلية[١٣٠] :

١ ـ ان يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة ، مثل : استعارة النور للايمان ، والظلام للكفر ٠

٢ ـ ان يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة الا ان الشبه عقلي مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : اياكـــم وخضراء الدمن المشبه المرأة الحسناء في المنبت السوء ٠

المشبه به : خضراء الدمن / على سبيل الاستعارة التصريحية ومما لا يكون الشبه فيه الا عقليا قولنا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملح الأنام » وهو مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام : مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام لا يصلح الطعام الا بالملح ٠ قالوا : فكان الحسن رحمه الله عليه يقول : فقد ذهب ملحنا فكيف نصنع ٠ فأنت تعلم ـ كما يقول الامام عبد القاهر ـ ان لا وجه ههنا للتشبيه الا من طريق الصورة العقلية[١٣١] ٠

---

(١٣٠) أسرار البلاغة ص ٦١ ٠

(١٣١) نفس المصدر ص ٦٤ ٠

٣ ـ تشبيه المعقول بالمعقول : مثال قوله تعالى : (أو من كان ميتا فأحييناه) ٦/١٢٢ ٠

من حصل له العلم بوحدانية الله تعالى وبما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم كأنه انما وجد الحياة(١٣٢) ٠

خالي الذهن من العلم	الميت
المشبه	المشبه به (شبه عقلي)
من حصل له العلم	وجد الحياة
مشبه	مشبه به (شبه عقلي)

ب ـ الاستعارة التحقيقية : كقول الشاعر :

لدى أسد شاكي السلاح مقذف ٠

يقصد الرجل الشجاع ٠ والاستعارة يتحقق معناها حسا(١٣٣)
والاستعارة من حيث كونها مفردة أو متخيلة ضربان :

١ ـ المفردة : وهي استعارة لفظة بدل لفظة كقوله صلى الله عليه وسلم : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها ٠

فاستخدم طار بدل ذهب أو أسرع ٠

٢ ـ المتخيلة : وهي تخيل صورة جديدة والاستعانة بها في القاء مزيد من الوضوح والتفصيلات كقول أبي ذؤيب الهذلي :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

شبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة فأثبتت لها الأظفار(١٣٤) ٠

---

(١٣٢) أسرار البلاغة ص ٦٨ ، وانظر : تلخيص المفتاح ص ٢٧٤ ٠
(١٣٣) تلخيص المفتاح ص ٢٦٨ ٠
(١٣٤) تلخيص المفتاح ص ٢٨٩ وانظر : كتاب البديع ص ٦١ ٠

وقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله　　وعري أفراس الصبا ورواحله

أراد ان يبين أنه ترك ما كان يرتكبه زمن المحبة من الجهل ، وأعرض عن معاودته ، فبطلت آلاته ، فشبه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة ، قضى منها الوطر ، فأهملت آلاتها ، فأثبتت له الأفراس والرواحل[١٣٥] .

وقول النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همه　　تضاعف فيه الحزن من كل جانب

أراد قوله أراح الليل عازب همه : هذا من مستعار من اراحة الراعي الابل الى موضعها الذي تأوي اليه[١٣٦] .

وقول طفيل الغنوي :

وجعلت كوري فوق ناجية　　تقتات لحم سنامها الرحل

لان الشحم لما كان من الاشياء التي تقتات ، وكان الرحل ينتخونه ويذيبه ، كان ذلك بمنزلة من يقتاته[١٣٧] .

وقول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه　　وأردف أعجازا وناء بكلكل

نماذج من الاستعارة في القرآن الكريم :

١ ـ قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون · خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون) القلم : ٤٢ ، ٤٣ .

---

(١٣٥) تلخيص المفتاح ص ٢٩ والبديع ص ٨ .
(١٣٦) البديع ص ٨ .
(١٣٧) سر الفصاحة ص ١٢٧ وانظر البديع : ص ١٠ .
(١٣٨) سر الفصاحة ص ١٣٨ ، وانظر البديع ص ٧ .

الأصل : يوم يكشف عن شدة الأمر ·

قال رويشد بن رميض العنبري :

قد شمرت عن ساقها فشدوا

وجدت الحرب بكم فجدوا

وهو ما استشهد به الحجاج في خطبته ·

المشبه : شدة الأمر ·

المشبه به : ساق(١٣٩) ·

والمشبه به يفضل المشبه فضل التجسيد على المعنوي أو فضل الكائن الحي على المعنوي على سبيل الاستعارة التصريحية ·

٢ ـ قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيرا) النساء : ١٢٤ ·

٢ ـ قوله تعالى : (ولا يظلمون فتيلا) النساء : ٤٩ ·

٤ ـ قوله تعالى : (ولا يظلمون شيئا) مريم : ٦٠ ·

٥ ـ قوله تعالى : (ما يملكون من قطمير) فاطر : ١٣ ·

٦ ـ قوله تعالى : (لا يملكون شيئا) الزمر : ٤٣ ·

القطمير : القشرة الرقيقة على النواة ·

النقير : النكتة في النواة ·

الأصل : ولا يظلمون **عملا** ·

المشبه : عملا ·

المشبه به : نقيرا ، أو فتيلا ، أو قطمير ، شيئا ـ ويفضل المشبه به المشبه في كل كما يفضل الشيء الذات والمحسوس المعنوي على سبيل الاستعارة التصريحية ·

٧ ـ قوله تعالى : (سنفرغ لكم أيها الثقلان) الرحمن : ٣١ ·

المشبه : سنقصد ·

---

(١٣٩) تلخيص البيان ص ٣٤١ ·

المشبه به : نفرغ[١٤٠] / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

ويفضل المشبه به المشبه لان نفرغ تفيد التوفر على هذا الامر وحده دون غيره بينا نقصد تشمل الامر وغيره ٠ فاين ثمة نقصد من نفرغ من حيث قوة الدلالة ٠

٨ ــ قوله تعالى : (وأفئدتهم هواء) ابراهيم : ٤٣ ٠

المشبه : فارغة ٠

المشبه به : هواء[١٤١] على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

وما كان مليئا بالهواء فهو في حكم الفارغ ٠ ويفضل المشبه به المشبه فضل الذي يحس على المعنوي ٠ وواضح أن الهواء له وزن وحجم وهو يدير الطواحين ويسوق السفن الشراعية ويجتاح المدن والعمران اذا كانت سرعة الهواء كبيرة ٠

٩ ــ قوله تعالى : (أعثرنا عليهم) الكهف : ٢١ ٠

المشبه : دللنا ٠

المشبه به : أعثرنا[١٤٢] / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

الدلالة قد تكون الجمادات كما تدل البعرة على البعير والحجر على الطريق وقد تكون في المعنويات ٠

أما العثور فهو امر يتصل بالانسان ويختص به ٠ ثم ان العثور فيه معنى غفلة القوم كأن المعجزة كانت قاب قوسين أو أدنى ولكن أمر كشفها كان بسبب طارىء وبسيط ٠

١٠ــ قوله تعالى : (او من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) الأنعام : ١٢٢ ٠

المشبه : الهدى ٠

---

(١٤٠) تلخيص البيان ص ٣٢٢ والفلك الدائر ص ١٩٦ ٠

(١٤١) تلخيص البيان ص ١٨٤ ٠

(١٤٢) تلخيص البيان ص ٢١٠ ٠

المشبه به : النور / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والنور شيء محسوس يفضل المعنوي في وضوح الدلالة[143] ·

١١ـ قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) الشرح : ٢ ·

المشبه : الهم وما كان يعانيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور المستعصية[144] ·

المشبه به : الوزر (وهو ما يحمله الانسان) / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والحمل شيء مادي محسوس ويفضل المعنوي في وضوح الدلالة ·

١٢ـ قوله تعالى : (ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه) البقرة : ٢٦٧ ·

المشبه : ترخصوا ·

المشبه به : تغمضوا / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

ويفضل المشبه به المشبه فضل التشخيص وهو ما يتصل بالعين وحركتها على المعنوي ·

١٣ـ قوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) البقرة : ١٨٧ ·

المشبه : ملازم ·

المشبه به : لباس[145] / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

ويفضل المشبه به المشبه فضل المحسوس المتشكل على هيئة مخصوصة المعنوي · والملازمة قد تكون جسدا وقد تكون فكرا وتعلقا ·

١٤ـ قوله تعالى : (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) الفرقان : ٢٣ ·

---

(١٤٣) انظر : تلخيص المفتاح ص ٢٧٣ ·

(١٤٤) تلخيص البيان ص ٣٦٨ ·

(١٤٥) المثل السائر ج ٢ ص ١١٣ ·

المشبه : عمدنا ٠

المشبه به : قدمنا[١٤٦] / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والقدوم يكون بعد تراخ ، كأنه قد كان يستدرجهم ، وكان يمهل ولا يهمل ٠

المشبه : عدما ٠

المشبه به : هباء منثور / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والهباء المنثور لا يساوي شيئا ولكن المحسوس المشاهد يفضل المعنوي في قوة الدلالة والوضوح ٠

١٥ـ قوله تعالى : (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) الحاقة : ١١ ٠

المشبه : علا وارتفع ٠

المشبه به : طغى / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والطغيان علو فيه معنى الغلبة والقهر والتسلط فهو الى أن يكون صفة انسانية تحكمية أقرب[١٤٧] ٠ واذن فهو فضل التشخيص على المعنوي والجماد ٠

١٦ـ قوله تعالى : (بريح صرصر عاتية) الحاقة : ٦ ٠

المشبه : شديدة ٠

المشبه به : عاتية / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والعتو شدة فيها قوة وتمرد[١٤٨] ٠

١٧ـ قوله تعالى : (سمعوا لها شهيقا وهي تفور ٠ تكاد تميز من الغيظ) الملك : ٧ ، ٨ ٠

المشبه : الصوت الشديد ٠

---

(١٤٦) الفلك الدائر ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ٠

(١٤٧) تلخيص المفتاح ص ٢٨٠ ٠

(١٤٨) سر الفصاحة ص ١٢٧ وتلخيص البيان ص ٣٤٣ ٠

المشبه به : الشهيق[149] وهو امتصاص الهواء ويكون وقت حركة نشطة للتنفس أو حلول الهواء البارد محل الهواء الساخن ٠

المشبه : تنشق ٠

المشبه به : تميز / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

التميز يكون التباين على غير ما تجانس بينا الانشقاق يكون بين قطعتين متجانستين ٠

المشبه : التوهج والغليان ٠

المشبه به : الغيظ وهو سمة انسانية / عـــلى سبيل الاستعارة التصريحية ٠

١٨ـ وقوله تعالى : (ولما سكت عن موسى الغضب) الأعراف : ١٥٤ ٠

المشبه : سكن ٠

المشبه به : سكت[150] / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والسكوت سمة تشخيصية علاقتها بالأحياء وواضـــح فضلها في الوضوح والدلالة ٠

١٩ـ قوله تعالى : (فمحونا آية الليل) الاسراء : ١٢ ٠

المشبه : كشفنا ٠

المشبه به : محونا / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والكشف يكون من الريح ويكون من الظواهر الطبيعية بينا المحو سمة انسانية ٠ ثم أن الكشف قد لا يكون كليا بينا المحو فيه معنى القوة وعدم مغادرة أي جزء ٠

٢٠ـ قوله تعالى : (وجعلنا آية النهار مبصرة) الاسراء : ١٢ ٠

المشبه : مضيئة ٠

---

(١٤٩) تلخيص البيان ص ٣٤٠ ٠

(١٥٠) الفلك الدائر ص ١٩٦ ٠

المشبه به : مبصرة / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

الاضاءة تكون من الجوامد والظواهر بينا الابصار من سمات الأجسام الحية فهو أقوى في الحياة والوضوح ٠

٢١ـ قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) مريم : ٤ ٠

المشبه : انتشر ٠

المشبه به : اشتعل / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

وسرعة انتشار النار أكبر من سرعة انتشار الشيب ففيه فضل الوضوح[١٥١] ٠

٢٢ـ قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) الأنبياء : ١٨ ٠

المشبه : نورد ٠

المشبه به : نقذف[١٥٢] / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والقذف أبلغ من الايراد ، لان فيه شدة الوقع ، وفي شدة الوقع بيان القهر وهو هاهنا ازالة الباطل على جهة الحجة لا على جهة الشك والارتياب ٠

المشبه : يذهبه ٠

المشبه به : يدمغه / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والدمغ أشد من الاذهاب لان في الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية ما ليس في الاذهاب ٠ وأصله في اللغة أصاب دماغه بالضرب وهو مقتل ٠

٢٣ـ قوله تعالى : (عذاب يوم عقيم) الحج : ٥٥ ٠

المشبه : يوم شديد ٠

---

(١٥١) سر الفصاحة ص ١٣٤ وانظر البديع ص ٣ وتلخيص البيان ص ٢٢٠ والمثل السائر ج ٢ ص ١١٣ ٠

(١٥٢) تلخيص البيان ص ٢٢٨ ٠

المشبه به : يوم عقيم(١٥٣) / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والعقيم التي لا تجيء بولد ، والولد من أعظم النعم ، وأجسم الخيرات ، ولهذا قالت العرب : شوهاء ولود خير من حسناء عقيم ٠

فالعقم أقوى في التعبير عن السخط والشدة ، وهو سمة تتصل بالأحياء ٠

٢٤ـ وقوله تعالى : (اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) الذاريات : ٤١ ٠

المشبه : غير الممطرة ٠

المشبه به : العقيم / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والعقم سمة الكائنات الحية وهو اوضح ٠

٢٥ـ قوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) يس : آية :٣٧ ٠

المشبه : نخرج ٠

المشبه به : نسلخ / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والسلخ تجسيد ويكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض وهو لذا أقوى من الاخراج وهو مما يشترك فيه الحي وغيره من الظواهر(١٥٤) ٠

٢٦ـ قوله تعالى : (فأنشرنا به بلدة ميتا) الزخرف : ١١ ٠

المشبه : أظهرنا ٠

المشبه به : أنشرنا(١٥٥) / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والنشور أبلغ في الدلالة لانه انبعاث لما كان قد مات ولا سبيل الى احيائه وأما الظهور فيعني أن لا كبير جهد اكثر من الكشف والاظهار ٠

---

(١٥٣) البديع ص ٣ ٠

(١٥٤) تلخيص البيان ص ٢٧٤ . سر الفصاحة ص ١٢٧ ، تلخيص المفتاح ص ٢٧٨ ٠

(١٥٥) تلخيص البيان ص ٣٠٠ ٠

٢٧ـ قوله تعالى : (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) الأنفال : ٧ ٠

المشبه : الحرب ٠

المشبه به : الشوكة وهو حد السلاح / علـــى سبيل الاستعارة التصريحية ٠

وحد السلاح أبين وأوضح من المعنوي لانه محسوس ٠

٢٨ـ قوله تعالى : (واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) السجدة : ٥١ ٠

المشبه : كثير ٠

المشبه به : عريض / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والعرض أقل وحدة في الأبعاد والمساحات والحجوم فاذا كان العرض عريضا فان آفاق الاتساع لهي اكبر بكثير جدا ٠ ان طريقا طولها عشرة ملايين كيلو مترا قد لا تزيد في العرض على خمسة أمتار فترى ما يكون سعة المساحة ذات العرض العريض ؟

٢٩ـ قوله تعالى : (والصبح اذا تنفس) التكوير : ١٨ ٠

المشبه : انتشر ٠

المشبه به : تنفس / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والتنفس أمر يتصل بالأحياء فهو أقوى دلالة(١٥٦) ٠

٣٠ـ قوله تعالى : (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) البقرة : ٢١٤ ٠

المشبه : ازعجوا ٠

المشبه به : زلزلوا / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والزلزلة أشد من الازعاج علاوة كونها لفظة مصوتة ٠

٣١ـ قوله تعالى : (أفرغ علينا صبرا) البقرة : ٢٥٠ ٠

المشبه : أنزل ٠

---

(١٥٦) سر الفصاحة ص ١٢٧ ٠

المشبه به : أفرغ / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والافراغ انزال يفيد سعة الشيء وكثرة وانصبابه(١٥٧) ·

٣٢ـ قوله تعالى : (ضربت عليهم الذلة) آل عمران : ١١٢ ·

المشبه : وضعت ·

المشبه به : ضربت(١٥٨) / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والضرب وضع فيـــه قوة وضغط وتثبيت كضرب النقود وضرب الخيمة ·

٣٣ـ قوله تعالى : (فنبذوه وراء ظهورهم) آل عمران : ١٨٧ ·

المشبه : غفلوا عنه ·

المشبه به : نبذوه وراء ظهورهم(١٥٩) / عـــلى سبيل الاستعارة التصريحية ·

والنبذ فيه معنى الاغفال المتعمد مع سبق الاصرار ومن ثم فهو أقوى وضوحا في الدلالة ·

٣٤ـ قوله تعالى : (أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) المائدة : ١١٤ ·

المشبه : سرورا ·

المشبه به : عيدا / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والعيد يشتمل على السرور علاوة على لم شمل القريب والبعيد ، الكبير والصغير ·

٣٥ـ قوله تعالى : (واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ··· الآية) الأنعام : ٦٨ ·

---

(١٥٧) تلخيص البيان ص ١٢٠ ·

(١٥٨) نفس المصدر ص ١٢٥ ·

(١٥٩) نفس المصدر ص ١٢٦ ·

المشبه : يتنقصون ·

المشبه به : يخوضون / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

الخائض يطأ على غير بصيرة ، ومن ثم فالخوض اكبر في الدلالة على الجهل المطبق من يتنقصون · اذ التنقص قد يعني الفهم وقد يعني عدمه لكن تغيير النفس هو المهم بينما الخوض يدل على جهلهم بآيات الله تعالى تماما ·

٣٦ـ قوله تعالى : (ويبغونها عوجا) الأعراف : ٤٤ ·

المشبه : خطأ ·

المشبه به : عوجا / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والاعوجاج حسي مشاهد والخطأ معنوي ففضل المشبه به المشبه من حيث الوضوح العملي والدلالة التطبيقية ·

٣٧ـ قوله تعالى : (أو آوي الى ركن شديد) هود : ٨٠ ·

المشبه : معين ·

المشبه به : ركن / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والركن مشاهد محسوس بينما المعين يكون حسيا ومعنويا وهو أضعف · واذن يفضل المحسوس الكلي المحسوس الجزئي ·

٣٨ـ قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) الاسراء : ٢٩ ·

المشبه : ممسوكة ·

المشبه به : مغلولة / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

والغلول علاوة كونية سمة انسانية فيها عامل التصميم والارادة فهي اكثر دلالة على النفوز من الامساك[١٦٠] ·

٣٩ـ قوله تعالى : (ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الأكبر) السجدة : ٢١ ·

---

(١٦٠) انظر : سر الفصاحة ص ١٢٧ وتلخيص البيان ص ٢٠٠ ·

المشبه : ليمسنهم او يريهم او يسمعهم ٠

المشبه به : لنذيقنهم / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والذوق له فضل على غيره من الحواس لانه أسرع الى الادراك وأقدر على التمييز ٠ فالانسان اذا رأى شيئا ولم يعرفه مسه ، واذا مسه ولم يعرفه شمه ، واذا شمه ولم يعرفه ذاقه ٠

٤٠ـ وقوله تعالى : (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) الكهف : ١١ ٠

المشبه : غطينا ٠

المشبه به : ضربنا / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والضرب تغطية مع قوة وتثبيت ٠

٤١ـ قوله تعالى : (واذا غربت تقرضهم ذات الشمال) الكهف : ١٧ ٠

يقول أبو هلال العسكري : ليس في جميع القرآن أبلغ ولا أفصح منه ٠ وحقيقة القرض هنا أن الشمس تسقط عليهم وقتا يسيرا ثم تغيب عنهم ، والاستعارة أبلغ ، لان القرض أقل في اللفظ من كل ما يستعمل بدله من الألفاظ ، وهو دال على سرعـــة الارتجاع ٠ والفائدة ان الشمس لو طاولتهم بحرها لصهرتهم ، وانما كانت تمسهم قليلا بقدر ما يصلح الهواء الذي هم فيه ، لأن الشمس اذا لم تقع في مكان أصلا فسد(١٦١) ٠

المشبه : تنالهم بشيء يسير ٠

المشبه به : تقرضهم / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والقرض العطاء الحسن الذي يرد ٠

٤٢ـ قوله تعالى : (جدارا يريد ان ينقض) الكهف : ٧٧ ٠

المشبه : يوشك ٠

---

(١٦١) كتاب الصناعتين ص ٢٨٢ وانظر تلخيص البيان ص ٢١٠ ٠

المشبه به : يريد[162] / على سبيل الاستعارة التصريحية .

والارادة أمر يتصل بالحياة وبخاصة الانسان فهو أقوى في الدلالة والوضوح .

٤٣- قوله تعالى : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) آل عمران : ١٨٧ .

المشبه : الشعاع .

المشبه به : الخيط / على سبيل الاستعارة التصريحية .

والخيط مادي محسوس بينا الشعاع طاقة . وواضح ان المادي يفضل الطاقة من حيث الدلالة والوضوح .

روي ان عدي بن حاتم اشتبه عليه المراد بلفظ الخيط في الآية وحمله على ظاهره . فقد روي أنه قال : لما نزلت هذه الآية أخذت عقالا أسود وعقالا أبيض فوضعتهما تحت وسادتي فنظرت فلم أتبين فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ان وسادك لطويل عريض انما هو الليل والنهار[163] .

٤٤- قوله تعالى : (وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) الزخرف : ٤ .

المشبه : أصل .

المشبه به : أم[164] / على سبيل الاستعارة التصريحية .

٤٥- ومثله قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب) آل عمران : ٧ .

٤٦- قوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) الاسراء : ٢٤ .

المشبه : جانب .

---

(١٦٢) تلخيص البيان ص ٢١٦ .

(١٦٣) أسرار البلاغة ص ٢٩٧ وحديث عدي في تفسير الطبري للآية وفي البخاري ٩٦/٢ ومسلم ١٥٦/٥ . وانظر تلخيص البيان ص ١٢٠ .

(١٦٤) البديع ص ٢ وتلخيص البيان ص ١٢٢ .

المشبه به : جناح / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

٤٧ـ قوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون · ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) الشعراء : ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ·

المشبه : الفنون والأغراض ·

المشبه به : الأودية / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

وانما خص الأودية بالاستعارة ولم يستعر الطرق والمسالك أو ما جرى مجراها لأن معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض(١٦٥) ·

٤٨ـ قوله تعالى : (وجعلنا الليل لباسا) النبأ : ١٠ ·

المشبه : غطاء ·

المشبه به : اللباس / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

وواضح فضل اللباس على الغطاء من حيث الزيادة في التغطية على نحو مرسوم وتفصيل واضح · وكأن ذلك اشارة الى اضرار الظواهر المرتبطة بالنواميس الكونية ·

٤٩ـ قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) النحل : ١١٢ ·

المشبه : صنوف ·

المشبه به : لباس / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

فضل اللباس على الصنوف فضل المحسوس على المعنوي ·

٥٠ـ قوله تعالى : (فما بكت عليهم السماء والأرض) الدخان : ٢٩ ·

المشبه : تغيرت (أي أن وجودهم وعدمهم واحد من حيث سيرورة الحياة وأسسها ·

المشبه به : بكت(١٦٦) / على سبيل الاستعارة التصريحية ·

---

(١٦٥) المثل السائر ج ٢ ص ٩٧ · وانظر تلخيص البيان ص ٢٥٩ ·

(١٦٦) تلخيص البيان ص ٣٠٣ وجوه مختلفة للتفسير ·

والبكاء يفضل التغير من حيث انه سمة حياتية فيها الاستشعار بالفقر ٠

٥١ـ قوله تعالى : (واحلل عقدة من لساني) طه : ٢٧ ٠

المشبه : حبسة ٠

المشبه به : عقدة / وهو مادي محسوس / تصريحية ٠

٥٢ـ قوله تعالى : (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) البقرة : ٢٣٥ ٠

٥٣ـ قوله تعالى : (الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) البقرة : ٢٣٧ ٠

المشبه : اقتران ٠

المشبه به : عقدة / تصريحية ٠

والعقدة تكون للمادي المحسوس بينما الاقتران يكون للمادي والمعنوي ٠

٥٤ـ قوله تعالى : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) البقرة : ٦١ ٠

المشبه : وضعت ٠

المشبه به : ضربت(١٦٧) / تصريحية ٠ وفيه قوة وتثبيت ٠

٥٥ـ وقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا) آل عمران : ١٠٣ ٠

المشبه : عهد ٠

المشبه به : حبل / مادي محسوس / تصريحية ٠

٥٦ـ قوله تعالى : (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) آل عمران : ١٤٤ ٠

المشبه : وراءكم ٠

المشبه به : اعقابكم(١٦٨) / مجسد / تصريحية ٠

---

(١٦٧) تلخيص البيان ص ١١٥ ٠

(١٦٨) نفس المصدر ص ١٢٥ ٠

٥٧ـ قوله تعالى : (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) آل عمران : ١٨٨ ٠

المشبه : نجوه ٠

المشبه به : مفازة[١٦٩] / مادي محسوس ./ تصريحية ٠

٥٨ـ قوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) الأنعام ٥ ٠

المشبه : ما وراءهم ٠

المشبه به : دابرهم / تصريحية ٠

ودابرة الفرس ، وجمعها دوابر ، ما يلي حافره من خلفه[١٧٠] ٠

٥٩ـ قوله تعالى : (قد شغفها حبا) يوسف : ٣٠ ٠

المشبه : تغلغل اليها ٠

المشبه به : شغفها / تصريحية ٠

أي أصاب شغافها وهو غشاء قلبها[١٧١] ٠

٦٠ـ قوله تعالى : (قالوا أضغاث أحلام) يوسف : ٤٤ ٠

المشبه : أخلاط ٠

المشبه به أضغاث / تصريحية ٠

الأضغات جمع ضغث وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه الى بعض[١٧٢] ٠

٦١ـ قوله تعالى : (لاحتنكن ذريته الا قليلا) الاسراء : ٦٢ ٠

المشبه : أغوينهم ٠

المشبه به : احتنكنهم / تصريحية ٠

---

(١٦٩) نفس المصدر ص ١٢٦ ٠

(١٧٠) تلخيص البيان ص ١٣٦ ٠

(١٧١) نفس المصدر ص ١٧١ ٠

(١٧٢) نفس المصدر والصفحة ٠

الاحتناك من حنك قاد الدابة من حنكها[173] .

٦٢ـ قوله تعالى : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) الكهف : ٩٩ .

المشبه : يختلط .

المشبه به : يموج / تصريحية .

وهو أقوى في الدلالة .

٦٣ـ قوله تعالى : (والله جعل لكم الارض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا) نوح : ١٩ ، ٢٠ .

المشبه : ملائمة للسعي .

المشبه به : البساط[174] / تصريحية .

والبساط مادي محسوس .

٦٤ـ قوله تعالى : (الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) غافر : ٦٤ .

المشبه : ترويحا .

المشبه به : فراش / تصريحية .

فضل المحسوس على المعنوي .

المشبه : محكمة .

المشبه به : بناء / تصريحية .

والبناء يشتمل على الاحكام فهو فضل المحسوس على المعنوي .

٦٥ـ وقوله تعالى : (وجعل الشمس سراجا) نوح : ١٦ .

المشبه : ضياء .

المشبه به : سراجا / تصريحية .

---

(١٧٣) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(١٧٤) نفس المصدر ص ٣٤٩ .

وهو فضل المادة على الطاقة من حيث الاحساس بها ووضوحها ٠

هذه أمثلة على الاستعارة من كتاب الله تعالى أتينا بها على سبيل الاستشهاد لا الحصر لنتبين منهج القرآن الكريم في الاستعارة وفوائدها ٠

ومما في كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الاستعارة :

١ ـ الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة ٠

المشبه : مقترن ٠

المشبه به : معقود وهو مادي محسوس / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

الاقتران ربما كان معنويا اما العقد فمحسوس ٠

٢ ـ اكثروا من ذكر هاذم اللذات[١٧٥] (يعني الموت) ٠

المشبه : مزيل ٠

المشبه به : هاذم / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والهذم مادي محسوس بينا الازالة معنوية ومحسوسة ٠

٣ ـ البلاء موكل بالمنطق ٠

المشبه : منوط ٠

المشبه به : موكل / على سبيل الاستعارة التصريحية ٠

والتوكل والانابة أمر يتصل بالأحياء ٠

٤ ـ ورأى عليا مع فاطمة رضي الله عنهما في بيت فرد عليهما الباب وقال : جدع الحلال أنف الغيرة ٠

المشبه : الغيرة (معنوي) ٠

---

(١٧٥) وفي المثل السائر : روي عنه صلى الله عليه وسلم انه دخل يوما مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكشرون . فقال : اما انكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى ٠ (ج ٢ ص ٩٨) ٠

المشبه به : أنف الغيرة (وهو مجسد) / على سبيل الاستعارة التصريحية والمتخيلة .

ومن أقوال الامام علي رضي الله عنه من الاستعارة :

١ ـ « السفر ميزان القوم » .

المشبه : اختبار .

المشبه به : ميزان وهو مادي محسوس / تصريحية .

٢ ـ وقوله لابن عباس : أرغب راغبهم ، واحلل عقدة الخوف عنهم .

المشبه : توهم .

المشبه به : عقدة / تصريحية .

٣ ـ العلم قفل مفتاحه المسالة .

المشبه : غموض .

المشبه به : قفل / تصريحية . مادي محسوس .

المشبه : واسطته .

المشبه به : مفتاح / تصريحية / مادي محسوس .

٤ ـ الحلم والأناة توأمان ينتجهما علو الهمة .

المشبه : قرينان .

المشبه به : توأمان (مجسد) تصريحية .

٥ ـ وقوله لبعض الخوارج : والله ما عرفت حتى فغر الباطل فاه ، فنجمت نجوم قرن الماعز .

أضاف للباطل فما وصفات الفم على سبيل الاستعارة المتخيلة .

٦ ـ وقالت عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عن عمله صلى الله عليه وسلم وعبادته فقالت : كان عمله ديمة(١٧٦) .

---

(١٧٦) كتاب الصناعتين ص ٢٨٥ . والكثير من الشواهد من القرآن والسنة واقوال الصحابة انما اعتمدت فيها كتاب الصناعتين وتدرجه قد اتبعت .

المشبه : دائم ٠

المشبه به : ديمة أي المطر الدائم في سكون وهو مادي محسوس تصريحية ٠

الاستعارة التمثيلية :

كقول الرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى[١٧٧] ٠

وقولهم : انك لا تجني من الشوك العنب[١٧٨] تقوله لمن لا يرجى منه خير ٠

وقولهم : لا تجعل الدر في أفواه الكلاب[١٧٩] ٠ لمن لا يقدر قيمة الامر٠

وقولهم للرجل يعمل غير معمل : أراك تنفخ في غير فحم ، وتخط على الماء[١٨٠] ٠

وتقول للرجل يعمل الحيلة ، حتى يميل صاحبه الى الشيء ، قد كان يأباه ويمتنع منه : ما زال يفتل في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد[١٨١] ٠

ومثله قول الشافعي رحمه الله :

أأنثر درا بين سارحة الغنم وأنثر منظوما لراعية النعم

وهو تمثيل حالة جديدة بحالة سابقة معروفة ، فكأن الاستعارة كانت استعارة صيغة قد كانت في مصطلح اللغة لتدل على أمر معين لتؤدي معنى خاصا في حالة جديدة خاصة ثم تعود بعد ذلك الى موقعها في المصطلح المتعارف عليه ٠ ولذلك كانت الأمثال لا تغير لأنها أصبحت في مثل مفردات اللغة ٠

---

(١٧٧) دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ ٠

(١٧٨) أسرار البلاغة ص ١٠٦ ٠

(١٧٩) نفس المصدر والصفحة ٠

(١٨٠) دلائل الاعجاز ص ٤٧ ٠

(١٨١) نفس المصدر والصفحة ٠

الكنايـة :

هي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز ارادته معه(١٨٢) . وقد أجمع الجميع ـ كما يقولا لامام عبد القاهر ـ على ان الكناية أبلغ من الافصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وأن الاستعارة مزية وفضلا ، وان المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة(١٨٣) ولا يعني هذا ان كل كلام يشتمل على أمر من هذه الأمور قد غدا أبلغ اذ العبرة في جمال كل نص كما لو كان هذا النص حياة مستقلة يقول الامام عبد القاهر : اعلم ان من شأن هذه الاجناس أن تجري فيها الفضيلة وأن تتفاوت التفاوت الشديد(١٨٤) .

ومن أمثلته :

١ ـ الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الاضغان(١٨٥)

أبيض مخذوم كناية عن موصوف وهو السيف والمخذم سريع القطع .

٢ ـ قال عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل أبوها واما عبد شمس وهاشم(١٨٦)

كناية عن صفة وهي طول العنق . لان كل بعيدة مهوى القرط طويلة العنق ، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القرط ، اذا كان الطول في عنقها يسيرا(١٨٧) .

ومثله قول امرىء القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

---

(١٨٢) تلخيص المفتاح ص ٣٠٧ .

(١٨٣) دلائل الاعجاز ص ٤٨ .

(١٨٤) نفس المصدر ص ٥٠ .

(١٨٥) تلخيص المفتاح ص ٣٠٧ .

(١٨٦) سر الفصاحة ص ٢٧١ والمثل السائر ج ٣ ص ٦٠ ـ ٦١ .

(١٨٧) نفس المصدر والصفحة .

كناية عن صفة وهي ترف هـــذه المرأة ـ أي لــم تنتطق لتخدم نفسها[188] .

وكذلك قوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتهـا   بمنجرد قيـد الأوابد هيكل

كناية عن صفة وهي سرعة الفرس . أراد أن يصف الفرس بالسرعة ، فلم يقل أنه سريع ، وقال : قيد الاوابد وهي الوحوش . والمنجرد قصير الشعر والهيكل الضخم[189] .

٣ ـ قول الشاعر :

ان السماحة والمروءة والندى   في قبة ضربت على ابن الحشرج

فانه اراد ان يثبت اختصاص ابن الحشرج بهذه الصفات ، فترك التصريح بان يقول : انه مختص بها ، او نحوه الى الكناية ، بان جعلها في قبة مضروبة عليه[190] كأن هذه الصفات تنتسب اليه ويشتمل عليها .

ومثله قولهم : المجدبين ثوبيه ، والكرم بين برديه[191] .

وقول الشاعر :

أو ما رأيت المجد ألقى رحله   في آل طلحة ثم لم يتحول[192]

وهكذا يتبين أن المتكلم يريد اثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومىء به اليه ، ويجعله دليلا عليه . (دلائل ص ٤٥) .

---

(١٨٨) المصدر السابق .

(١٨٩) انظر نفس المصدر والصفحة .

(١٩٠) تلخيص المفتاح ص ٣١١ .

(١٩١) نفس المصدر ص ٣١٢ .

(١٩٢) نفس المصدر ص ٣١٣ .

ومن أمثلة الكناية في القرآن الكريم :

١ ـ قوله تعالى : (ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) سورة ص : ٢٣ · فكنى بذلك عن النساء ، والوصف الجامع بينهما هو التأنيث(١٩٣) ·

٢ ـ قوله تعالى : (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين ، فاجعل لي صرحا) سورة القصص : ٣٨ · فعبر عن الآجر بالوقود على الطين(١٩٤) ·

٣ ـ قوله تعالى : وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها) الأحزاب : ٢٧ ·

والارض التي لم تطأوها كناية عن مناكح النساء وذلك من حسن الكناية ونادره(١٩٥) ·

٤ ـ قوله تعالى : (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) الكهف : ٤٢ ·

يقلب كفيه كناية عن الحسرة والندم ·

٥ ـ قوله تعالى : (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) الزخرف : ١٨ ·

كناية عن الاناث ·

٦ ـ قوله تعالى : (وقالوا مال هذا الرسول **يأكل الطعام** ويمشي في الأسواق) الفرقان : ٧ ·

كناية عن الحاجة الى الخروج ·

٧ ـ قوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) البقرة : ٢٢٣ ·

---

(١٩٣) المثل السائر ج ٣ ص ٥٥ ·

(١٩٤) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٠ ·

(١٩٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٦٢ ـ ٦٣ ·

كنى عن النكاح بالحرث ·

٨ ـ قوله تعالى : (وقد أفضى بعضكم الى بعض) النساء : ٢١ ·
كناية عن الجماع ·

وفي كل الفاظ النكاح كان القرآن الكريم يمر بها مر كريما بطريق الكناية ·

٩ ـ قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الاسراء : ٢٩ ·
كناية عن المنع والاسراف على الترتيب ·

ومن الكناية في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه سلم يكني ويوري :

١ ـ قوله لأزواجه : « أطولكن يدا أسرعكن لحوقا بي » فلما مات صلوات الله وسلامه عليه جعلن يطاولن بين أيديهن ، حتى ينظرن أيتهن أطول يدا ، ثم كانت زينب أسرعهن لحوقا به ، وكانت كثيرة الصدقة ، فعلمن حينئذ انه لم يرد الجارحة ، وانما أراد الصدقة(١٩٦) ·

٢ ـ قوله صلى الله عليه وسلم : « رويدك سوقك بالقوارير » يريد بذلك النساء ، فكنى عنهن بالقوارير ، وذاك انه في بعض أسفاره وغلام أسود اسمه أنجشة يحدو ، فقال له : يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير(١٩٧) ويستهجن بعض المعاصرين من الحيارى وجه الشبه في هذه الكناية اللطيفة اذ ان النساء في أخبيتهن على هوادجهن وقت السفر كقوارير الطيب الملبسة بالقماش والخرز وغيره من أدوات الزينة خيفة عليها من الانكسار · والمعنى ان اولاء لا طاقة بهن على تحمل مشاق السفر المضني ووعثائه ·

---

(١٩٦) المثل السائر جـ ١ ص ٨١ والتفتازاني على التلخيص ص ٢٩٠ ·
(١٩٧) المثل السائر جـ ٣ ص ٦٤ ·

ومن كنايات العرب :

١ ـ ما ذكره جار الله الزمخشري بان الأنمارية فاطمة بنت الخرشب سئلت عن بنيها أيهم أفضل · فقالت عمارة لا بل فلان ، لا بل فلان ثم قالت : ثكلتهم ان كنت أعلم أيهم أفضل · هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها (أي هم متناسبون في الشرف[١٩٨] والحلقة المفرغة متناسبة الأجزاء يمتنع تعيين بعضها طرفا وبعضها وسطا لكونها مفرغة مصمتة الجوانب كالدائرة) ·

٢ ـ قول القبعثرى للحجاج وقد قال له متوعدا :

لأحملنك على الأدهم · قال : مثل الأمير يحمل على الادهم والاشهب ·

أراد الحجاج بالادهم : القيد ·

والقبعثرى : أراد الفرس الأسود والأبيض[١٩٩] ·

المجـــاز :

هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في أصل اللغة والمجاز أعم من حيث ان كل استعارة مجاز ، وليس كل مجاز استعارة[٢٠٠] ·

وهو ضربان : مرسل وعقلي :

أما المرسل : فهو المجاز الذي استعمل لعلاقة غير المشابهة ومـــن أمثلته :

١ ـ قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) الذاريات : ٤٧·

والأيدي هي القوة وهي سبب في القوة فالمجاز علاقته السببية ·

٢ ـ قوله تعالى : (وينزل لكم من السماء رزقا) غافر : ١٣ ·

الرزق مسبب عن المطر الذي ينزل من السماء فالعلاقة المسببية ·

---

(١٩٨) التفتازاني على التلخيص ص ٢٥١ ·

(١٩٩) تلخيص المفتاح ص ٩٠ والتفتازاني على التلخيص ذات الصفحة ·

(٢٠٠) دلائل الاعجاز ص ٣٠١ والمثل السائر ج ٢ ص ٩٣ ·

ومثله قول الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا(٢٠١)

٣ ـ اذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم (من وصية عمر الى سعد رضي الله عنهما) ٠

العيون هي الجواسيس والعين للجاسوس جزء منه على أهمية قصوى ٠ فالعلاقة الجزئية ٠

٤ ـ قال تعالى : (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) البقرة : ١٩ ٠

الاصبع لا تدخل كلها في الأذن فالعلاقة الكلية ٠

٥ ـ قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم) النساء : ٢ ٠

اعتبار ما كانوا يتامى / اعتبار ما كان ٠

٦ ـ قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : (انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا) نوح : ٢٧ ٠

المولود الفاجر أريد به الرجل الفاجر والعلاقة اعتبار ما يكون ٠

٧ ـ قوله تعالى : (واسأل القرية) يوسف : ٢٨ ٠

والمقصود أهلها فالعلاقة المحلية ٠

٨ ـ قوله تعالى : (وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله) آل عمران : ١٠٧ ٠

الرحمة معنى من المعاني أطلق فيه الحال وأريد المحل ٠ فعلاقته الحالية ٠

ومن أمثلته في القرآن الكريم :

١ ـ قوله تعالى : (فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن) طه : ٤٠ ٠

---

(٢٠١) تلخيص المفتاح ص ٣٢٥ ٠

٢ ـ قوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) البقرة : ١٨٥ ·
أي هلاله ·

٣ ـ قوله تعالى : (واركعوا مع الراكعين) البقرة : ٤٣ والركعة جزء من الصلاة ·

٤ ـ قوله تعالى : (كتب عليكم القصاص في القتلى) البقرة : ١٧٨ ·

٥ ـ قوله تعالى على لسان صاحب يوسف في السجن : (اني أراني أعصر خمرا) يوسف ٣٦ ·

٦ ـ قوله تعالى : (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله) الطلاق : ٨ ·

٧ ـ قوله تعالى : (فليدع ناديه) العلق : ١٧ ·

المجاز العقلي :

هو اسناد اللفظ الى ملابس له بتأول(٢٠٢) · وله ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والسبب واسناده الى الفاعل او المفعول به اذا كان مبنيا له حقيقة ، والى غيرهما للملابسة مجاز(٢٠٣) ·

أمثلـــة :

١ ـ قال تعالى على لسان فرعون : (يا هامان ابن لي صرحا) غافر : ٣٦ ·

أسند البناء الى هامان وهامان سبب فيه لأنه أمر الفعلة ·

ومثله قولهم : هزم الأمير الجند(٢٠٤) ·

٢ ـ نهاره صائم ـ أسند الصوم الى النهار لانه زمان الصوم(٢٠٥) ·

---

(٢٠٢) تلخيص المفتاح ص ٣٧ ·
(٢٠٣) نفس المصدر والصفحة ·
(٢٠٤) نفس المصدر ص ٤١ ·
(٢٠٥) التفتازاني على التلخيص ص ٣٧ ·

٣ ــ نهر جار ــ أسند الجريان الى النهر لانه مكان الماء(٢٠٦) ٠

٤ ــ جد جده ــ أسند الفعل الى المصدر ولم يسند الى فاعله(٢٠٧) ٠

٥ ــ عيشة راضية ــ بني للفاعل واسند الى المفعول به اذ العيشة مرضية(٢٠٨) استعمل اسم الفاعل بدل اسم المفعول ٠

٦ ــ سيل مفعم : بني للمفعول واسند الى الفاعل لان السيل هو الذي يفعم أي يملأ من أفعمت الاناء اذا ملأته(٢٠٩) ٠

استعمل اسم المفعول بدل اسم الفاعل ٠

ومثله قوله تعالى : (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) الاسراء : ٤٥ ٠

اسم المفعول بدل ساتر وهو اسم الفاعل ٠

ومثله قوله تعالى : (انه كان وعده مأتيا) مريم : ٦١ ٠

اسم المفعول بدل اسم الفاعل وهو آت ٠

---

(٢٠٦) نفس المصدر والصفحة ٠

(٢٠٧) نفس المصدر والصفحة ٠

(٢٠٨) نفس المصدر والصفحة ٠

(٢٠٩) نفس المصدر والصفحة ٠

ثبت المصادر والتفاسير والمراجع

أ ـ المصادر :

١ ـ الآمدي أبو القاسم : الموازنة (دار المعارف بمصر ١٩٦١ـ١٩٦٥م) .
٢ ـ ابن الأثير ، ضياء الدين : المثل السائر (مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٩م) .
٣ ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة (لجنة البيان العربي ، مصر ، ١٩٥٧م) .
٤ ـ ابن الزملكاني : التبيان في علم البيان (ط ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٤م) .
٥ ـ ابن سلام ، محمد : **طبقات فحول الشعراء** (مطبعة المدني مصر ١٩٧٤م) .
٦ ـ ابن قتيبة ، ابو محمد : **أدب الكاتب** (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦هـ) .
٧ ـ ابن المعتز ، عبد الله : **البديع** (لوزاك وشركاه لندن ١٩٣٥م) .
٨ ـ ابن ناقيا البغدادي : الجمان في تشبيهات القرآن (ط المطبعة العصرية بالكويت ١٩٦٨م) .
٩ ـ ابن هشام ، عبد الملك : **السيرة النبوية** (مطبعة البابي الحلبي مصر ١٩٦٨م) .
١٠ـ ابن وهب ، اسحق : **البرهان في وجوه البيان** (ط مطبعة وزارة المعارف / بغداد ١٩٦٧م) .
١١ـ البلاذري ، احمد بن يحيى : **فتوح البلدان** (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م) .
١٢ـ البلخي ، أبو زيد : **البدء والتاريخ** (باريس ١٨٩٩م) .
١٣ـ التفتازاني ، مسعود بن عمر : **مختصر المعاني** (ط مطبعة البابي الحلبي بمصر) .
١٤ـ الجاحظ ، ابو عثمان : **البيان والتبيين** (ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٨م) .
١٥ـ الجاحظ ، ابو عثمان : **الحيوان** (مطبعة الحلبي بمصر ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥م) .

١٦ــ الجرجاني ، الامام عبد القاهر : **أسرار البلاغة** (مطبعة وزارة المعارف / استانبول ١٩٥٤م) ٠

١٧ــ الجرجاني ، الامام عبد القاهر : **دلائل الاعجاز** (ط ٢ مكتبة القاهرة / القاهرة ١٩٦١م) ٠

١٨ــ الخفاجي ، محمد بن سنان : **سر الفصاحة** (مطبعة صبيح واولاده/ انقاهرة ١٩٥٣م) ٠

١٩ــ الرازي ، فخر الدين : **نهاية الايجاز** (مطبعة الآداب والمؤيد القاهرة ١٣١٧هـ) ٠

٢٠ــ السجستاني ، عبد الله : **كتاب المصاحف** (ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٦م) ٠

٢١ــ الشريف الرضي : **تلخيص البيان في مجازات القرآن** (ط ٢ ، مطبعة البابي الحلبي / القاهرة ١٩٥٥م) ٠

٢٢ــ شرح العقيدة **الطحاوية** (من منشورات المكتب الاسلامي بيروت ١٩٧٣م) ٠

٢٣ــ الطبري ، أبو جعفر : **تاريخ الرسل والملوك** (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٠م) ٠

٢٤ــ العسكري ، أبو هلال : **كتاب الصناعتين** (ط ٢ ٠ مطبعة الحلبي وشركاه ١٩٧١م) ٠

٢٥ــ القزويني ، **محمد** بن عبد الرحمن الخطيب : **تلخيص المفتاح** (ط ١ مطبعة **الحلبي** مصر ١٩٣٨م) ٠

٢٦ــ القلقشندي ، أبو العباس : **صبح الاعشى** (مطابع كوستاتوماس مصر ١٩٦٣م) ٠

٢٧ــ القيرواني ، ابن رشيق : العمدة (ط ٣ ، ١٩٦٣ــ١٩٦٤م) ٠

٢٨ــ ياقوت الحموي : **معجم الأدباء** (مطبوعات دار المأمون) ٠

٢٩ــ اليعقوبي ، احمد بن يعقوب : **تاريخ اليعقوبي** (دار صادر / دار بيروت ١٩٦٠م) ٠

ب ــ التفاسير :

١ ــ جامع البيان لابن جرير الطبري ٠

٢ ــ الكشاف للزمخشري ٠

٣ ـ تفسير الخازن ٠
٤ ـ تفسير النسفي ٠
٥ ـ مفاتيح الغيب للرازي ٠
٦ ـ أحكام القرطبي ٠
٧ ـ تفسير الطبرسي ٠
٨ ـ تفسير الطباطبائي ٠
٩ ـ تفسير ابن كثير ٠
١٠ـ تفسير البغوي ٠
١١ـ تفسير البيضاوي ٠
١٢ـ روح المعاني للألوسي ٠
١٣ـ الجواهر جوهري طنطاوي ٠
١٤ـ تفسير الجلالين ٠
١٥ـ تفسير المنار ٠
١٦ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ٠

جـ ـ المراجع العربية والترجمة :

١ ـ أمين الخولي : **فن القول** (دار الفكر العربي / القاهرة ١٩٤٧م) ٠
٢ ـ توماس أرنولد : **الدعوة الاسلامية** (ترجمة واجتزاء محمد خالد حسين : دين الناس كافة ، من منشورات وزارة الاوقاف بعمان ١٩٧٢م) ٠
٣ ـ د٠ خالص جلبي كنجو : الطب في محراب الايمان ٠
٤ ـ د٠ زكريا ابراهيم : **مشكلة الفلسفة** (دار القلم ، مصر ١٩٦٢م) ٠
٥ ـ سيد قطب : **التصوير الفني في القرآن** (بدون دار النشر أو السنة)٠
٦ ـ د٠ عائشة عبد الرحمن : **التفسير البياني للقرآن الكريم** (ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٨م) ٠
٧ ـ عبد الرزاق نوفل : **الاعجاز العددي للقرآن الكريم** (دار الشعب القاهرة ١٩٧٥م) ٠
٨ ـ عبد الله التل : **جذور البلاء** (ط ١ دار الارشاد بيروت ١٩٧١م) ٠
٩ ـ د٠ عدنان الخطيب : **المعجم العربي** (معهد البحوث والدراسات العربية / القاهرة ١٩٦٧م) ٠

١٠ـ علي الجارم ومصطفى أمين : **البلاغة الواضحة** (ط ٢١ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م) .

١١ـ مالك بن نبي : **الظاهرة القرآنية** .

١٢ـ محمد ابو زهرة : **المعجزة الكبرى** (دار الحمامي للطباعة ١٩٧٠م) .

١٣ـ محمد علي أبو حمدة : **أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنـة** (دار العربية / بيروت ١٩٦٩م) .

١٤ـ محمد علي أبو حمدة : **الفكر الاسلامي** (جمعية عمال المطابـع التعاونية / عمان ١٩٧٤م) .

١٥ـ محمد علي ابو حمدة : **في النقد الادبي التطبيقي** (جمعية عمـــال المطابع التعاونية / عمان ١٩٧٦م) .

١٦ـ د. مصطفى محمود : **القرآن / محاولة لفهم عصري** (دار الشروق بيروت ١٩٧٠م) .

١٧ـ د. ناصر الديـن الاسد : **مصادر الشعر الجاهلـي** (ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٢م) .

د ـ المراجع الاجنبية :

1. Diller, Karl C. : Generative Grammar (Rowly. Massachusetts, Newbury House Publishers, U. S. A. 1971) .
2. Moore, Robert : Effective Writing (4 th. edition, Holt, Rinehart and Winston Inc. New York, U. S. A. , 1971)
3. Morris, Alton and Others : The Modern Essay (2 nd. edition, Harcourt. Brace and World Inc. U. S. A: : 1968 :
4. Scharbach, Alexander and Singleton, Ralph : The Lively Rhetoric (2 nd . edition. Holt, Rinehart and Winston Inc. New York, 1972)

هـ ـ الدوريات والمجلات والصحف :

١ ـ مجلة البلاغ عدد ٣٧٦ تاريخ ١٧/١٠/١٩٧٦ م .

٢ ـ مجلة العربي عدد ٢١٠ حزيران ١٩٧٧ م .

٣ ـ كتاب الهلال عدد ٤٢ .

٤ ـ مجلة الوعي الاسلامي عدد ١٥ حزيران ١٩٧٧ م .

٥ ـ الرأي عدد ٢٩/٥/١٩٧٦ م .

الفهرس

الصفحة

الصفحة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com